المكتبة الثقافية

١٦٠

المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب

محمد عبد الغني حسن

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١ يوليو سنة ١٩٦٦

المكتبة الثقافيّة

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسّر لكل قارئ أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصّصين وبخمسة قروش لكل كتاب

الكتاب القادم

الصّراع بين الميكروبات والنباتات

دكتور حسين العروسى

١ اغسطس سنة ١٩٦٦

دار مصر للطباعة

الثمن ٥ مـ

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

المكتبة الثقافية
— ١٦٠

المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب

محمد عبد الغني حسن

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١ يوليو ١٩٦٦

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ ــ ٩٠٥١٤٧

المقدمة

كان للعرب والمسلمين ـ كغيرهم من الأمم ـ حروب وفتوح ، وعداوات ولقاءات مع غيرهم من الأمم ؛ بل كان لهم مع بعضهم بعضا ـ في الجاهلية ـ أيام مذكورة ، وغارات مشهورة .

والمتحاربون لا يظلون دائما على حال من الحرب ، ولكنهم يجنحون الى السلم ، حقنا للدماء ، أو ابقاء على الود ، أو اقرارا بالهزيمة ، أو تسليما للعدو ...

وهنا لا بد من عقود الهدنات ، وعهود المصالحات ، وصلوح الأمان ، حتى يكون الاتفاق على بينة ، والشرط على نور ، والتسليم على أساس ، والصلح على ضمان ...

وفي هذا الكتاب ـ وموضوعه يكاد يكون جديدا كله ـ تحدثت عن المهادنات والمعاهدات في الاسلام ، والدوافع الى قبولها ، والبواعث على اللجوء اليها ، والشروط فيها ، والاشهاد عليها ، ومجالس توقيعها والتصديق عليها ، والأطراف المتعاقدة فيها ، وصيغ تحريرها ، وأساليب كتابتها ـ منذ كانت بسيطة في غير تكلف الى أن وُضعت لها القواعد ، وعملت لها المراسم ، واختصت بها الدواوين ،

وتخصص لها الكتّاب ــ والمفاوضات والرسل التى تسبق الهدن والصلوح واتفاقات السلام ، وتمهد لها .

ولم يفتنى الحديث عن مبلغ احترام العرب والمسلمين للعهود التى يبرمونها ، والعقود والهدن التى يُمضونها ، استجابة لدينهم ، وابراء لذممهم ، وحفاظا منهم لعهدهم . فهى ظاهرة واضحة تلفت النظر فى تاريخ العرب والمسلمين . كما يلفت النظرَ أيضا حبُّ العرب للسلام ، وحرصهم عليه ، اذعانا لقوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . كما لم يفتنى أن أختم فصول الكتاب بفصل عن نقض العهود وفسخها .

وقد جعلت كتب التاريخ العربى والاســـلامى ، من الأمهات والأصول ، مصدر البحث ، وأصل الرجوع ، وموضع الاستشهاد . وكانت الحوادث أمامى كثيرة كثرة العرب ! حافلة كحفول تاريخهم ، مزدحمة كازدحام أمجادهم أحيانا ، ومآسيهم بعض الحين ... فنسّقت من ذلك كله موضوعات متناسبة ، جعلتها فصولا ورءوسا للبحث كله .

وبلغت فى ذلك حتى آخر عصور المماليك . أما ما بعد ذلك ــ منذ الفتح العثمانى الذى نكبت به بلاد العرب والاسلام الى العصر الحاضر ــ فله حديث آخر ، أرجو أن يعين الله عليه ، وأن يوفق اليه ...

محمد عبد الغنى حسن

لمحة عامة عن

المعاهـــدات والمهـــادنات

فى الاســـلام

لم تعرف المعاهدات والمهادنات المكتوبة فى الأمة العربية قبل الاسلام ، على الرغم مما كان يقوم بين القبائل من حروب ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء .

وكانت علاقات العرب فى الجاهلية بجيرانهم من الفرس والروم على حال من التبعية لهم ، كما حدث بين الغساسنة والروم من ناحية ، والمناذرة والفرس من ناحية أخرى ، وهى حال خففت كثيرا من المناوشـــات التى كانت تقوم على التخوم . وهــذه المناوشات ــ مع قيامها ــ لم تكن على صورة الحرب المنظمة التى تستوجب صلحا ، أو تستلزم عهدا ، أو تقتضى قيام مهادنة .

فلما جاء الاسلام حدثت حروب فى شـــبه الجزيرة العربية نفسها بين المســلمين والمشركين ، وهى الحــروب التى تمثلت فى غزوات النبى عليه السلام ، حتى انتشر الدين الجديد ودخل الناس فيه أفواجا .

ولم تكن هذه الغزوات اعتداء ، ولكنها كانت دفاعا عن الدعوة الجديدة وحماية لها من أذى الذين وقفوا فى سبيلها أو آذوا أصحابها واعتـــدوا عليهم . ثم حدثت بعد ذلك الفتوحات التى اتجهت نحـــو الامبراطوريتين الكبيرتين : الفارسية ، والرومانية . وهى حروب اقتضت قيام سلسلة من العهود والمهادنات بين الغالبين والمغلوبين .

وظل تاريخ الأمة العربية ــ أو الاسلامية بمعنى أوسع ــ يتراوح بين مدّ الحروب وجزرها مدة ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وخاصة حينما التقوا بالأسبان والقوط فى شبه جزيرة الأندلس ، وبالصليبيين فى مصر والشام .

وقد التقى المسلمون مع الأوربيين فى زحف آخر على يد السلاطين من بنى عثمان . وهو زحف لم يكن عربيا فى جنسه ، الا أن راية الاسلام كانت تظله فى ظلال الفاتحين من المسلمين العثمانيين . من أمثال السلطان محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وسليمان القانونى الذى فتح بلغراد سنة ١٥٢١ ، وفتح رودس سنة ١٥٢٢ ، وغز النمسا حتى بلغ عاصمتها « ڤينا » سنة ١٥٢٩ ، ولكن رداءة الجو اضطرته الى فك الحصار عنها [1] .

وما كانت المعاهدات والمهادنات وعهود الصلح جديدة

---

(١) التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ــ ص ٨٩

على المسلمين ، فقد عرفوها منذ غزواتهم الأولى مع الرسول ، وكان فى كثير من هذه المهادنات كسب سياسى للدولة الاسلامية الناشئة ، واعتراف بكيانها السياسى . ولم تكن مجرد انهاء للحرب أو وضع لأوزارها ، أو مجرد ربح عسكرى يظفر به الغالب على حساب المغلوب . وأول ما يحضرنا من ذلك صلح الحديبية الذى عقده المسلمون مع قريش بعد بيعة الرضوان [1] . وهو صلح فرضته مقتضيات الأمور على قريش ، حتى لا يتحدث العرب عنها أن النبى عليه السلام دخل مكة عنوة . وقد جرت فى سبيله محادثات تمهيدية طويلة قبل امضائه والتصديق عليه . كما يحدث اليوم تحت سمع الناس وبصرهم . وكادت تلك المحادثات تنقطع فى بعض الأحيان [2] ، لولا حكمة النبى فى نجاحها . وسيرى القارىء الكريم ذكرا لصلح الحديبية فى أكثر من موطن فى هذا الكتاب . وذلك لأهميته من ناحية ، ولاشتماله على مسائل تتصل بكتابة المعاهدات الاسلاميه من ناحية أخرى .

وفى صلح الحديبية دلالة دبلوماسية ذات خطر ، ففد كان يحمل فى طياته اعترافا ضمنيا من المشركين بالدولة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ـ ص ٣٦٥
(٢) حياة محمد ـ للدكتور محمد حسين هيكل ص ٣٦٢

الناشئة للاسلام [1] ، وهو اعتراف غير مسبوق به من قريش ـ ولنسمها دولة الشرك ـ بأن محمدا عليه السلام لم يكن ثائرا عليها ، ولا متمردا على حكمها ، ولا عاصيا . لأن الصلح المهادن لا يعقد بين الدولة والثائرين عليها ، وانما يعقد بين هيئتين لهما شخصية وجودية قائمة . وهذا أول نصر لدولة الاسلام من حيث كيانها السياسى ، وقوامها الدولى .

ومن الطبيعى أن يكون كل صلح يأتى بعد ذلك توكيدا لهذا الاعتراف بشخصية الدولة الاسلامية المستقلة ، كما حدث فى صلح خيبر بعد ذلك ، وهو صلح قضى على سلطان اليهود السياسى فى جزيرة العرب [2] .

واذا كان صلح خيبر كسبا للدولة الاسلامية الجديدة من ناحية الحرب والسياسة ، فانه كان كسبا آخر لها من الناحية الاقتصادية ، وهو صلح تدل مواده القليلة على فهم النبى لأحوال الزراعة والاقتصاد فى عهده ، وأحوال الأيدى العاملة وتوزيع العمل بينها . فقد أبقى لأهل خيبر أرضهم التى صارت اليه بحكم الفتح ، على أن يعاملهم فى الأموال على النصف [3] . أى أنهم يعملون فى الأرض لما لهم

---

(١) كتاب « محمد القائد » ـ للصاغ محمد عبد الفتاح ابراهيم ص ٦٦

(٢) حياة محمد ـ لهيكل ـ ص ٣٧٧

(٣) سيرة ابن هشام ـ جـ ٣ ـ ص ٣٨٩

من الخبرة بشئون الزراعة ، على أن يؤدوا للمسلمين نصف ثمرها ، ويبقى النصف لهم جزاء قيامهم بالعمل .

وكان طبيعيا أن تمتد غزوات النبى فى الدولة الاسلامية الجديدة الى تخوم الجزيرة العربية ، وهو امتداد لم يكن على قدر واسع فى عهد النبى ، كما حدث بعده بقليل فى خلافة عمر بن الخطاب ، حيث بدأ سيل الفتوح ينهمر على الفرس والروم من كل جانب . ولكنه امتداد لم يكن بد منه ومن الاعلان به للمسلمين ، حتى يتهيـــأوا لقتال الروم ؛ على خلاف ما كان يصنع النبى عليه السلام فى تكتمه ، حين كان يتوجه الى ناحية غير التى يقصدها تضليلا للعدو . وانسحبت جيوش الروم من حدودها استعدادا لتحصنها داخل الشام . وصالح النبى بعد انتهائه الى تبوك « يحنّة ابن رؤبة » صاحب « أيلة » ، وحالف « أكيدر » صاحب « دومة » ، بعد أن عرض عليه الاسلام فى مكة فأسلم [1] .

وتعد معاهدة الحدود « بأيلة » ومحالفة صاحب دومة آخر ما عقد النبى من مهادنات على أطراف الجزيرة العربية ، أو بعبارة أخرى ، آخر المعاهدات الاسلامية داخل اطار الجزيرة العربية . أما ما جد بعد ذلك من عهود ومصالحات فى خلافة عمر فقد كان على احدى رقعتين : اما أرض تتبع الجزيرة فى جغرافيتها ولا تتبعها فى السيادة السياسية ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ـ ص ١٨٠ ـ ١٨١

كالشام ، واما ارض بعيدة عن الجزيرة العربية فى جغرافيتها وبعيدة فى سياستها ، كالعراق الفارسى ومصر . فقد كان الأول تابعا للفرس ، وكانت الثانية تابعة للروم .

ولقد كانت ارض فارس مشهدا لمواقع حربية كثيرة ، كما كانت تبعا لذلك مسرحا لكثير من المعاهدات وعقود الصلح . الا اننا لا نشهد فى الأعوام المستحرة الأولى من فتح فارس توقيع عهود بين العرب والفرس ، فلم تكن اليها حاجة ، لأن حملة العرب الصادقة عليهم بلغت من الشدة حدا ، لم يدعهم يجتمعون للتفكير فى صلح ، ولكنهم طار صوابهم ، فطاروا الى الجبال ، حتى ما كان الرجل منهم يستطيع الصبر على القتال ، ولقد كان العربى يشير الى الأسوار من أهل فارس فيجىء اليه وعليه السلاح التام ، فيضرب عنقه ، ويأخذ ما يكون عليه [1] . فلما ذهبت دهشة المفاجأة من حرب الفتح الفارسى رأينا بعد ذلك المصالحات بين العرب وبينهم فى أمثال صلح « الماهين » و « صلح ماه دينار » و « صلح جرجان » فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة ، و « صلح أذربيجان » فى السنة نفسها . وتلك ظاهرة معقولة التعليل ، فقد كان غياب الطرف الثانى من المعاهدة مانعا من عقدها ، لأنها لا تتم الا

---

(١) تاريخ الطبرى – ج ٤ – ص ١٣٥

بين طرفين ، فلما تهيأ الطرف الثانى تهيأت أسباب عقد المعاهدات والمصالحات .

ويلاحظ فى المعاهدات الاسلامية تدرجها من البساطة والايجاز ، الى التفصيل والاسهاب ، تبعا لتدرج أساليب الكلام فى العصور الاسلامية المتعاقبة ، حتى لم يزد « صلح الحديبية » على ثلاثة أسطر ، كما أورده أصحاب السير [١] ، وان كان ابن هشام أورده فى عشرة أسطر [٢] .

وظلت المعاهدات والمهادنات على عهدها الأول من الايجاز والقصد الى النقص من غير تزيد فى العبارة ، والبعد عن زخرفة اللفظ بالمحسنات والسجع ، حتى جاء عصر الصناعة اللفظية ، فى أواخر العصر الفاطمى وما تلاه من عصور الأيوبيين والمماليك . فرأينا أن نصوص المعاهدات قد طالت ، حتى لقد بلغ بعضها ثمانى صفحات من القطع الكبير ؛ كالهدنة التى وقعت بين الظاهر بيبرس البندقدارى صاحب مصر ، وبين أسرة الاسبتار من الفرنجة المتغلبين على بعض البلاد الشامية ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى « الرابع عشر الميلادى » . وقد تضمنت هذه المهادنة التى نحن بسبيل الحديث عنها مواد تتصل بمناصفة الأرض المتعاقد عليها بين الطرفين ، والحرص على عمارتها

---

(١) صبح الأعشى ــ جـ ١٤ ــ ص ٦
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ــ ص ٣٦٦

وحمايتها ؛ والحكم فيها بشريعة الاسلام على المسلمين وحدهم ، وحرية أهل النصفين فى الاقامة فى أى نصف أرادوا . كما تضمنت حقوق صيد السمك فى المنطقة ، ومنعت تعدى أحد أصحاب طرفى الهدنة على الطرف الآخر كما ضمنت لفلاحى أسرة الاسبتار حرية الغدو والرواح ، والتصرف فى البيع والشراء ، وأعطت لفلاحى بلاد الاسماعيلية من الحرية مثل ما أعطت للفرنجة .

أما السجع فقد خلت منه المعاهدات الاسلامية الأولى خلوا تاما ؛ فلا تجد فى صلوح النبى وهدنه ، ولا فى معاهدات الفرس والشام ومصر أثرا لسجعة واحدة . وخير مثال لذلك صلح الحديبية ، فقد جاء فيه : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا اسلال ولا اغلال ـ أى لا سرقة ولا خيانة ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه اذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلت بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، السيوف فى القراب ، لا تدخلها بغيرها » .

أما حين ظهرت طريقة ابن العميد فى السجع ، وتلتها طريقة القاضى الفاضل ، فقد استعمل السجع فى ابتداءات المهادنات ومقدماتها ، كما استعمل ــ أحيانا ــ فى داخل موادها . ونرى ذلك فى المهادنة لمدة عامين بين المهدى بن تومرت سلطان الموحدين بالمغرب . والدوق فرندة ملك قشتالة . وكان موضوع تلك الهدنة الصلح على مدينة « مرسية » من بلاد الأندلس . وكان ذلك فى القرن السادس الهجرى .

وعلى الرغم من قوة المسلمين حينما كانوا أطرافا فى معاهداتهم الأولى مع غيرهم ، فانهم لم يعمدوا الى المباهاة بالألقاب والحرص على أساليب التفخيم ، فقد كان القائد أو المعاهد منهم يذكر اسمه مجردا من كل لقب ، بعيدا عن كل افتخار . الا أن النبى عليه السلام كان يحرص على نعته برسول الله . ولم يكن ذلك منه افتخارا ولا تباهيا ولا تعظيما لنفسه ، ولكن تذكيرا للناس برسالته . وتوكيدا لمعناها فى النفوس ، حتى لا ينكرها عليه منكر . وما كان أكثر هؤلاء المنكرين ! فقد أنكرها بالفعل سهيل بن عمرو نائب المشركين فى صلح الحديبية حينما سمع النبى يملى : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « والله انى لرسول الله وان كذبتمونى » .

ولكن كياسة النبى ولباقته ومرونته السياسية لم تحمله على الاصرار على لقب الرسالة فى مقام اجترأ فيه المعاند ، وتوقح فيه الجاحد . فقال لكاتب الصلح : « اكتب محمد بن عبد الله ! » .

وكاد كاتب هذه الهدنة : على بن أبى طالب يضيق صدرا بما حدث ، لولا أنه أذعن لمشيئة النبى حتى لا يضيع مكسب سياسى كبير ، من أجل أمر ــ فى نظر المهارة السياسية ــ صغير ...

ونرى بعد ذلك كبار القواد من المسلمين يكتبون المعاهدات بينهم وبين المغلوبين بأسمائهم عارية مجردة من كل لقب يراد به التعظيم والتفخيم . كما صنع سويد بن مقرن فى صلح قومس وفى فتح جرجان [١] وكما صنع النعمان بن مقرن فى صلح الماهين مع الفرس ، وكما صنع خالد بن الوليد فى عهده لأهل الشام [٢] . وكما صنع عمرو ابن العاص فى صلحه مع أهل مصر [٣] . فانهم كانوا يفتتحون هذه العهود بقولهم : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر » أو : « هذا ما أعطى النعمان بن مقرن » .

وما حاجة القوة العاقلة ، والعظمة الماثلة الى اتخاذ

---

(١) تاريخ الطبرى ــ ج ٤ ــ ص ٢٥٤
(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ــ ج ٤ ــ ص ٩٠
(٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٩

الألقاب ، والمماحكة بترفيع الجناب .. ؟ وأين من هذه القوة الحقيقية الفنية عن بهرج الألقاب الفارغة ، تلك المظاهر المصطنعة والألقاب المخترعة ، التى كانت فى غير موضعها ، كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد .. ؟

على أن المهادنات الاسلامية المتأخرة لم يفتها أن تخلع ألقاب التفخيم على المتعاقدين ، تعظيما لهم ، ورفعا لقدرهم ، وكان يدفعهم الى ذلك اما حسن التأدب مع خصومهم ، وأما الشعور بالضعف أمامهم . ومن النوع الأول مهادنات الملك الظاهر بيبرس مع ملوك الفرنجة ، كما صنع مع أسرة الاسبتار فى المعاهدة التى أمضيت بينهما سنة ٦٦٥ هـ ، ومع ملكة بيروت من الفرنجة فى سنة ٦٦٧ هـ فى الهدنة التى افتتحت بهذه العبارة : « استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة »[١] .

ولقد بالغ الملك الأشرف خليل المملوكى بن المنصور قلاوون فى استعمال التفخيم حينما هادن صاحب « برشلونة » الأسبانى سنة ٦٩٢ هـ ، فخلع عليه ألقاب : « الملك ، الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل ... »[٢] .

***

---

(١) صبح الأعشى ـ ج ١٤ ـ ص ٤٠

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣

وكانت المعاهدات قبل تدوين الدواوين تكتب فى مشهد من الطرفين المتعاقدين . فيملى المملى ، ويكتب الكاتب ، ويمضى المتعاقدان ، ويشهد الشهود ، ويجرى ذلك كله فى جلسة واحدة ؛ كما حدث فى صلح الحديبية بين النبى عليه السلام وقريش . فقد كان النبى يملى ، وعلى بن أبى طالب يكتب ، وسهيل بن عمرو نائب قريش يعترض ، والشهود يشهدون ... فلما دونت الدواوين ، اختص بكتابة المعاهدات والمهادنات كبار الكتاب فى الدولة ، ووضع لها من الشروط ، ورسوم الكتابة ، وقواعد العقد ، وصيغ التعبير ، وأصول التحرير ما جعلها صناعة . وجاز لنائب الخليفة أو القائد أن يمضيها نيابة عن منيبه . وجاز أن تحمل نسخة من المعاهدة الى مقر الطرف الثانى مع الرسل والسفراء لاقرارها والتصديق عليها . كما حدث بين المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بالأندلس ، وألفونس السادس ملك قشتالة فى القرن الحادى عشر الميلادى . فقد بعث المعتمد سفيره ابن عمار ، وكان حاذقا فى السياسة ، إلى الملك ألفونس لينوب عنه فى عقد معاهدة معه ، ليعاون الفونس الأسبانى ابن عباد العربى على خصومه من المسلمين ، نظير مبلغ كبير من المال يدفعه له ، وعلى أن لا يتعرض له فى انقضاضه على امارة طليطلة . وقد نجح السفير العربى — ابن عمار — وظفر من

الملك ألفونس بخاتمين ثمينين لنجاحه فى تنظيم المعاهدة [1] .

على أن هذه السفارة العربية الناجحة تقابلها سفارة بعث بها ألفونس أيضا الى المعتمــد ، وكان السفير فيها « ألبر هانس » ألفار هانس ، ومعه يهودى صيرفى ناقد ، ليميز الأموال التى تدفع الى ملك قشتالة على سبيل الجزية من المسلمين [2] ...

ولم تخل المعاهدات الاسلامية من وقوع الاشهاد عليها ، واثبات ذلك فى ذيل المعاهدة أو الصلح . وقد أشهد النبى عليه السلام على مصالحته مع قريش فى صلح الحديبية رجالا من المسلمين ، ورجالا من المشركين ، وكان من شهودها أبو بكر الصـــديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعلى بن أبى طالب ، الذى جمع بين تحرير الوثيقة وبين الشهادة عليها ..

وشهد على صالح بابليون : الزبير بن العوام ، وابناه عبد الله ومحمد ، وكتبه وردان [3] . كما شـــهد كثير من الصحابة على مصالحات الشام وفارس . أما صلح بعلبك الذى عقده القائد أبو عبيدة عامر بن الجراح مع أهلها ، فلم

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ــ للمؤرخ الألمانى يوسف اشباخ ــ ص ٦٠ ــ جـ ١
(٢) المصدر السابق ــ ص ٧٨
(٣) تاريخ الطبرى ــ جـ ٤ ــ ص ٢٢٩

يشهد عليه أحدا . واكتفى فى نهاية الوثيقة بقوله : شهد الله ، وكفى بالله شهيدا [1] .

وكان المسلمون احـــرص الناس على حفظ عهودهم والوفاء بها ، وهو حرص أكدته الشريعة وأوجبه الاسلام . ومن هنا شهدنا فى تاريخ المعاهدات الاسلامية حرصا شديدا على الوفاء بنصوصها والقيام بتعهـداتها ، لقوله تعـالى : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا) . وقوله : (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) .

ولا يجيز الاسلام نقض المعاهـــدات الا اذا خاف من الطرف الآخر خيانة أو رأى نقضا . فاذا بدت الخيانة وجب على المسلمين النبذ والاعلام بذلك ، لقوله تعالى : (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين) .

واذا نقض الطرفـــ الآخر فواجب المسلمين أن ينقضوا كما حدث بعد صلح الحديبية . فقد صالح النبى قريشا وصالحوه ، على أن يضعوا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . ودخلت خزاعة فى عهد الرسول عليه السلام ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . ولكن بنى بكر عدت على خزاعة ونقضوا عهدهم ، فندمت قريش على ما فعلت ، وخـــرج أبو ســفيان الى المدينة

---

(١) فتوح البلدان : للبلاذرى ـ طبعة الموسوعات ـ ص ١٣٦

ليستديم العقد ، ويزيد فى الصلح ، فرجع بغير حاجة ، وتجهز النبى لفتح مكة ، ففتحها فى العـــام الثامن [1] من الهجرة .

ولما نقض أهل فارس عهدهم مع المسلمين فى سنة تسع كعب بن أسد نائبهم مع النبى ، حل قتالهم ، على الرغم مما كان عليه المسلمون من نصب واعياء ، بعد حصار قريش وغطفان لهم [2] .

ولما نقض أهل فارس عهدهم مع المسلمين فى سنة تسع وعشرين ، سار اليهم عبيد الله بن معمر ليقاتلهم [3] . وكذلك فعل معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٣٣ مع أهل قبرص ، حين نقضوا عهدهم مع العرب وأعانوا الروم على الغزو فى بحر الروم (بحر العرب ، أو البحر المتوسط المشهور الآن خطأ بالبحر الأبيض المتوسط) بمراكب لهم : ففتح الجزيرة عنوة وسبى من اهلها خلقا كثيرا [4] .

وكان المسلمون فى معاهداتهم ومهادناتهم يؤمنون غيرهم على أنفسهم ومللهم وأموالهم وأرضـــهم ، فلا يغيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم [5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبى ـ جـ ٨ ـ ص ٦٥ ـ ٦٦
(٢) حياة محمد ـ لهيكل ـ ص ٣٢٨
(٣) الفتوحات الاسلامية ـ لابن دحلان ـ ص ٢٢٣
(٤) المصدر السابق ص ٢١٩
(٥) تاريخ الطبرى ـ جـ ٤ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ ـ ٢٥٤ ـ ٢٥٦

وقد جهد المسلمون أن يحتفظوا فى معاهداتهم ومهادناتهم بقوتهم المادية ، وعدتهم الحربية ، وعزتهم الأدبية . فمن سب مسلما أو استخف به نُهِكَ عقوبة . فحفظوا بذلك حق أنفسهم على غيرهم ، وحق غيرهم عليهم .

وتلك قصارى الأقوياء الكرماء حين يحكمون ، وغاية المنتصرين الرحماء حين يكتبون الشروط أو حين يملون ...

البواعث

على قبول المهـــادنات والمعاهدات

لا تأتى المهادنة عفوا ولا بدون مقدمات وأسباب ، بل لا بد لها من دوافع تدفع اليها ، وبواعث تحمل عليها .. ومن هذه البواعث ما يكون ضرورة لا مفر منها ، وظرفا طارئا لا محيص عنه ولا حيلة فى رده .

فقد يكون السبب مثلا فى الاضطرار الى قبول الهدنة والتسليم بالشروط من الطرف الآخر حالة حصار للبلد أو للمدينة أوللحصن ، ولا يجدى معه تطويل الأمد ، ولا المد فى الأمل ...

ويصادفنا من حالات ضغط الحصار فى التاريخ العربى الاسلامى حالة حصار أهل أسبانيا لمدينة أشبيلية العربية الاسلامية فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى . فقـد كان ملك قشتالة ألفونســو العاشر ، كما كان والده فرديناند الثالث من أشد الفرنجة عداوة للمسلمين ، وأملا فى اسقاط دولتهم بالأندلس ، وقد كان لأسلافهم مغامرات فى هذا السبيل أدت الى سقوط طائفة من الحواضر الاسلامية هناك . وفى سنة ٦٤٥ هـ بدأ الفرنجة حصـارهم لمدينة

أشبيلية ، وكان أهلها العرب المسلمون مصممين على الكفاح والدفاع عن مدينتهم الباسلة مهما لقوا فى سبيل ذلك . وحشد فرديناند الثالث لهذه الحملة الصليبية قوى كثيرة ، وطال حصار العدو للمدينة وأخذ يشتد يوما بعد يوم ، وكانت المدينة الباسلة تتلقى من المؤن عن طريق عدوة المغرب وطريق الوادى الكبير ما يكفى لامدادها بالصبر على مواصلة النضال ... واتجه أهل الأندلس الى اخوانهم المسلمين بالشمال الافريقى يطلبون نجدتهم ... وشارك الشعر العربى فى هذه الدعوة بقصيدة مؤثرة للشاعر ابن سهل الاشبيلى يقول فيها مخاطبا أهل المغرب :

نادى الجهاد بكم بنصر مضمر
يبدو لكم بين الفنا والضمَّر
خلوا الديار لدار عز ، واركبوا
عبر العجاج الى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى
ترووا بماء الحوض غير مكدر
يا معشر العرب الذين توارثوا
شيم الحمية كابرا عن أكبر ..
ان الاله قد اشترى أرواحكم
بيعوا ! ويهنيكم وفاء المشترى ..

ولكن حصار الاسبان طال حتى امتد الى ما يقرب من عام ونصف عام ، أبدى المسلمون خلالها ضروبا من البسالة

والصبر والمصابرة على القتال والدفاع ، ولكن الطاقة البشرية لها حدود من ناحية ، وتصميم الأسبان كان قويا من ناحية اخرى ، فاضطر أهل أشبيلية ـ تحت ظروف هذا الحصار الشديد ـ الى المهادنة والتسليم . وكان من شروط هذه الهدنة : ان يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يخيروا بين البقاء بالمدينة او المهاجرة منها .

ومع الأسف لم يشعر المسلمون بهذا التأمين والأمان الكاذب ، ففى الحال حولوا مسجدها الجامع الى كنيسة ، وازيلت معالم الاسلام منها بسرعة فائقة ، وغادرها أهلها المسلمون فرارا بدينهم ، وحرصا على أنفسهم وأموالهم التى اغتصبت . وقد تحولت أشبيلية الى بلد أوربى بعد ان عاش العرب المسلمون فيها أكثر من خمسة قرون ... فكان سقوطها على هذا الشكل السريع المؤثر ايذانا بسقوط الأندلس كلها وضياعها بعد قرنين تاليين ونصف قرن من الزمان ...

وتشبه حالة ضرورات الحصار فى مهادنة اشبيلية سنة ٦٤٥ حالة ضرورة حصار غرناطة سنة ٨٩٧ هـ ، فقد اضطرت شدة المحاصرة وضروراتها ، العرب المسلمين الى تسليم المدينة الاسلامية الكبرى ، والى قبول شروط الهدنة السبع والستين التى وضعها الأعداء المنتصرون ...

وقد أكد المؤرخ « المقرى » صاحب نفح الطيب هذه الضرورة الى التسليم والهدنة بسبب شدة الحصار على

العاصمة الأندلسية الكبرى قائلا : (وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة ، بسبب الجوع والغلاء ، دون الحرب ، ففر ناس كثيرون – من الجوع – الى البشرات ، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر من السنة – ٨٩٧ هـ – وقل الطعام ، وتفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم ، وقالوا : انظروا فى أنفسكم ، وتكلموا مع سلطانكم . فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا فى هـذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا . وكان ظننا أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس وأقام وقرب منا ... فانظـروا لأنفسكم وأولادكم . فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك فى اسلام البلد ، خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا أرادوها ...)

وقد يكون هناك سبب آخر لقبـول المهادنة بالصلح والتسليم غير حالة الحصار التى أشرنا اليها قبل هذا . فقد حدث فى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة أن القـائد العربى المسلم ، والفاتح الكبير قتيبة بن مسلم قد صالح « خوارزم شاه » على اقليم « خام جرد » من أقاليم آسيا الوسطى ، وكان هذا الصلح نكاية فى أخى ملك خوارزم ، وكان هذا الأخ قويا شديد البأس على أخيه الملك ، على الرغم من أنه كان أصغر منه سنا ... وكان شديد الطمع

لما فى يد رجال أخيه الملك من مال ومتاع ، بل ونساء .. !
فكان اذا بلغه أن عند أحد المنقطعين الى الملك جارية أو مالا أو دابة أو بنتا أو أختا أو امرأة جميلة أرسل اليه وأخذه منه . وكان لا يمتنع عليه أحد ، حتى الملك نفسه ، فاذا قيل للملك فى هذا أجاب بأنه لا يقوى عليه ، مع الاغتياظ منه ! فلم يجد الملك وسيلة للتخلص من أخيه الا أن يدعو القائد العربى « قتيبة » الى أرضه ليسلمها اليه !! واشترط عليه فى هذا الصلح العجيب أن يدفع اليه أخاه هذا وكل من يضاده ، ليحكم فيهم بما يرى ...

ويذكرنا هذا الحادث فى التخلص ـ عن طريق المهادنة ـ من خصم مشاغب ، حتى ولو كان أخا ، بحادث آخر لجأ اليه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من ملوك دولة الموحدين بافريقية والأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى . فقد انتصر يعقوب هذا على الفرنجة من أهل أسبانيا فى موقعة شهيرة معروفة فى التاريخ العربى الاسلامى باسم موقعة « الأرك » ، ويرى بعض المؤرخين أنها كانت أعظم قدرا من موقعة « الذلاقة » التى انتصر فيها قبله يوسف بن تاشفين على الأسبان نصرا عظيما . ولم يكن الخليفة الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بحاجة الى التهادن مع الفرنجة مع انتصاره الكاسح عليهم ، ولكنه اضطر الى مهادنتهم لأنه بلغه أن أحد الثوار من المرابطين قد قام بافريقية ، فأراد يعقوب أن يعجل بعودته من

الأندلس الى مراكش لقمع هذا الثائر واخماد فتنته ، ووأد حركته ؛ وفعلا عاد ونجح فى هذا .

وكانت موقعة « الأرك » هذه فى شعبان سنة ٥٩١ هـ ، وانتهت بهزيمة الفرنج على نحو مروع ، فسقط منهم فى القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرات الفروسية الأسبانية التى اشتهرت فى أوربا فى القرن السادس . واستولى العرب المنتصرون على معسكر الفرنجة بقضه وقضيضه ، وبجميع ما فيه من السلاح والعدة ، والمال والمتاع ... ولكن القائد المسلم المنتصر اضطر الى عمل مهادنة وتوقيعها لكى يتفرغ لشأن آخر من شئون توحيد الكتلة الاسلامية فى الشمال الافريقى ...

وقد يدفع توقع الخطر واحتماله قبل نزوله الى طلب الهدنة . وفى ذلك دلالة على الحكمة والحذر حتى لا تتعرض البلاد لويلات كان من الممكن تلافيها .. ومثال هذا فى عالم الهدن والمصالحات ما حدث من صاحب « أنطاكية » المسيحى فى عهد صلاح الدين الأيوبى . فان هذا الزعيم الاسلامى المجاهد الكبير لما فتح « بغراس » عزم على أن يتوجه الى أنطاكية وحصرها ، فخاف صاحب أنطاكية مغبّة ذلك ، وأشفق منه على اقليمه ، وأرسل الى صلاح الدين يطلب منه الهدنة أو يعد باطلاق سراح كل أسير عنده من المسلمين . ولم يستأثر صلاح الدين بالرأى موافقة أو رفضا ، فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم

فأشار الأكثرون باجابة صاحب أنطاكية الصليبى الى رغبته فى طلب الهدنة وعقد المهادنة . وكان صاحب أنطاكية حينذاك أعظم الفرنجة شأنا ، وأكثرهم ملكا ، ومع هذا اضطر الى طلب الهدنة خوفا من شر مرتقب ، وتفاديا لخطر متوقع . . .

وقد يكون من بواعث طلب المهادنات والمصالحات أسباب أخر متروكة لتقدير الطالب وظروفه . ففى عهد صلاح الدين الأيوبى أيضا وفى سنة ٥٨٧ عقدت هدنة بين المسلمين والفرنجة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر . وقد اضطر ملك انجلترة - ريتشار أيضا ! - الى طلب عقدها من صلاح الدين ، لأنه (لما رأى اجتماع العساكر ، وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر ، وليس بالساحل بلد للمسلمين يطمع فيه ، وقد طالت غيبته عن بلاده ، فأرسل الى صلاح الدين فى الصلح ، فلم يجبه صلاح الدين ، بل طلب منه المصاف والحرب . .) ولكن ملك الانجليز لم ييأس من هذا الرفض ، وعاود الالحاف فى الطلب مرة بعد مرة ، وأرسل الى الملك العادل - أخى صلاح الدين - فى تقرير الهدنة . وقد رأى صلاح الدين - بعد الاستئناس برأى أخيه وجماعة من الأمراء - أن يجيب ملك انجلترة الى طلب الهدنة ، فحضر رسل الفرنجة وعقدوا المهادنة . . .

ومن الدوافع الى طلب الهدنة والتعجيل بالمعاقدة مع العدو ما فعله الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس آخر ملوك

بنى زيرى بغرناطة فى القرن الخامس الهجرى ، فقد اضطر الى عقد مهادنة مع « البر هانش » وكيل ألفونس السادس. ونتركه هنا يروى بنفسه وبقلمه فى مذكراته الثمينة قصة هذا التعاقد قائلا : (ولما حان انصرافنا من « ليِّيط » ، كلمنا أمير المسلمين فى عسكر يتركه عندنا بالأندلس ، خوفا من الرومى ــ يعنى الملك الفرنجى ــ أن يكلب عليها ، ويطلبنا بثأر تلك السفرة وغيرها ، فلا يكون عندنا بمن ندافع ، فقال ــ يعنى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ــ : « أصلحوا نياتكم ، تَكْفَوا عدوكم ! » ولم يعطنا عسكرا . فأيقنا ان الرومى لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب . كالذى كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالبا للمال ، متجنيا على من خالفه أن يُفسد بلاده . وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق ، فدافعوا شره ، ودافعوا اليه ما سلف له عندهم . وبلغنى الخبر ، وزاد ذلك فى غمى ، وعلمت أنى فيه كراكب الأسد : ان أسلمت البلد ، ولا عسكر عندى ، هُتك ، ولم ينجبر لى فيه درهم ، ولم أعذر مع هذا ، ولا يقر المطالب بأن يقول عنى انى صنيعته أو سقت اليه العدو ، كالذى رأيت وسمعت قبل عن ابن رشيق ــ وخسارة بلدى زائدة . ولا نقيم أودا بذلك لكل ما نحاوله من الغزو كل عام ، وضيافات المرابطين ! فتجتمع علىّ الخسارة من وجهين . وان واسيت القوم ، وأصلحت على نفسى ، قيل :

« قد عاقد الرومى ! » ويشنع علىّ ما لم أفعل ، كالذى كان . فلم أنج مما توقعت للقدر المفضى ...)

وهكذا كان هذا الأمير المسلم بين أمرين أحلاهما مر ، فاضطر الى مهادنة الفونس السادس ، ومعاقدة البرهانش أيضا حتى يخلص من المأزق الذى هو فيه ...

وقد يكون فى بعض المهادنات خير كثير مخبوء يراد به صلاح الأمة ونجاتها من شر محقق ، أو خطر محدق ... كما فى هدنة صلاح الدين الأيوبى مع ملك الانجليز التى أشرنا اليها قبل هذا ، والتى رفضها أول الأمر ، ثم قبلها بعد الحاف من ريتشارد ، وبعد اقناع من الملك العادل ومن امراء المسلمين ، وندع المؤرخ أحمد زينى دحلان يقول فى ذلك : (وكانت هذه الهدنة من لطف الله بالمسلمين ، لأن الله لما علم قرب وفاة صلاح الدين ، قدر وقوع هذه الهدنة لأنه لو توفى صلاح الدين فى مدة الحرب ، لزاد طمع الفرنج فى بلاد الاسلام ، وانتشر شرهم ، ولربما أنه لا يوجد بعده ما ـ يريد من ـ يقوم مقامه ...)

ويلجأ الأطراف فى المهادنات والمصالحات دائما الى اظهار أنفسهم ودولتهم بمظهر القوة ، حتى يضطر الطرف الآخر الى طلب الهدنة منهم . وقد يعمدون فى ذلك الى الحيلة وحسن الخديعة ... كما حدث من المنصور بن أبى عامر ـ فيما يرويه عن بعض الرواة ـ من أنه قدم عليه رسول

ملك الروم ، وكان أعظم الملوك شأنا فى القرن الرابع الهجرى ، وكان قصد ملك الروم من ايفاد هذا الرسول ان يتجسس له على أحوال دولة الاسلام بالأندلس ، وان يطلعه على اخبار المسلمين وقوتهم فى غرب الأرض ... فلما علم المنصور به قبل وصوله ، أمر ان يغرس « نيلوفر » كثير عند بركة عظيمة ، فى أحد بساتينه . ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب ، ومثلها من الفضة الخالصة ، فسبكت قطعا صغارا على قدر ما تسع الزهرة الواحدة من نبات النيلوفر ، ثم ملأ بها النيلوفر الذى غرسه فى البركة . فلما حضر رسول ملك الروم عنده قبل الفجر فى مجلسه بالقصر العظيم المسمى « بالزاهرة » المطل على البركة ، انتظر حتى طلوع الفجر ، ودعا بألف من رجال الصقالبة الموكلين بحراسة القصر ، وعليهم أقبية الذهب والفضة ، ومناطق من الذهب والفضة ، وبيد خمسمائة منهم أطباق من الذهب ، وبيد الخمسمائة الآخرين أطباق من الفضة ... فأبدى رسول ملك الروم تعجبه الشديد من حسن صورهم ، وجميل هيئتهم ، ولم يدر ما المراد من هذه الهيئة ... فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة متفتحا بعد انضمامه بالليل ، فبادر هؤلاء الصقالبة الى التقاط قطع الذهب والفضة من النيلوفر ، وأخذوا يجتنونها كما تجنى الأثمار من الأشجار ... وكانوا يضعون القطع الذهبية فى أطباق الفضة ، والقطع الفضية فى أطباق الذهب ، حتى

التقطوا كل ما فى النيلوفر وجاءوا به فوضعوه بين يدى المنصور بن أبى عامر ... حتى صار كومة بين يديه ! فتعجب رسول ملك الروم من ذلك ، وأعظمه غاية الاعظام ! وظن أن ذلك المحصول هو ثمر ذلك الشجر !! وكان أثر هذا المنظر فى نفسه أنه طلب ـ فى التو ـ المهادنة من المسلمين !! ثم عاد الى ملك الروم وأخبره بما رأى ، قائلا له : لا تعاد هؤلاء القوم ، ولا هذا الأمير العربى ! فانى رأيت الأرض تخدمه وتخدمهم بكنوزها !!

وقد تكون هذه القصة الطريفة من مبتكرات الخيال ، أو من عالم الحقائق ، فما كان بغريب ولا صعب على المنصور أن يفعل هذا مع ما نعرفه من كثرة المال والثراء والترف فى الأندلس فى ذلك العصر ، ولكن الحادثة تدلنا على اهتمام القوم بالمظهر العام الذى يؤثر فى الأطراف الأخرى ويحملها على طلب توقيع المهادنات ...

المفاوضات والرسل للصلح

لا تتم الهدنة أو المعاهدة طفرة واحدة من دون مفاوضات تمهيدية لها ، ورسل يقومون فيهما بين الطرفين . وتلك عملية هامة خطيرة تسبق دائما كتابة الهدنة والتوقيع عليها . فحين يميل أحد الطرفين المتحاربين أو المتهادنين الى الصلح أو التسليم أو عقد هدنة بينه وبين الطرف الآخر فسرعان ما يختار من قومه رسولا أو أكثر يبعثهم الى الطرف الآخر لاجراء المباحثات ، والقيام بالمفاوضات التى تمهد للصلح . وقد يكون الرسول مفوضا تفويضا تاما فلا يعود الى طرفه الا ومعه المشروع النهائى لنص الهدنة ، وقد يضطر الى التردد بين الطرف الآخر وبين قومه لأخذ الرأى وتبادل الفكر على مسألة أو مسائل معينة يقتضى النص عليها والبت فيها الرجوع الى الأمير أو الرئيس أو القائد .

ففى صلح الحديبية مثلا نرى المفاوضات تدور بين قريش وبين المسلمين أكثر من مرة . ونرى قريشا أول الأمر توفد رسلها الى معسكر النبى ليتعرفوا قوة المسلمين من ناحية ، وليصدوهم عن دخول مكة من ناحية أخرى . وكان الوفد مكونا من رجال من قبيلة خزاعة وعلى رأسهم « بديل بن ورقاء » ، وسألوا النبى أولا : ما الذى جاء به

الى مكة ؟ فلما اقتنعوا من حديث النبى الصادق بأنه جاء زائرا للبيت الحرام مؤديا حرمات الله ولم يجىء يريد حربا ، رجعوا الى قريش يقنعونها بأن يخلوا بين النبى وبين دخول البيت العتيق . ولكن قريشا ــ فى غمرة ضلالها وعنادها ــ اتهمت الرسل بأنهم ممالئون مخامرون مع النبى عليه السلام ...

وعاودت قريش السفارة للمفاوضة مرة أخرى ، فأرسلت رجلا من الأحابيش ــ وهم رماة من العرب السود ــ وهو « الحليس » سيد الأحابيش . وجاء الرجل ، فلما صار قريبا من معسكر النبى والمسلمين ، أمر النبى بأن تطلق الهدى أمامه ، لتكون أقوى دليل على حسن نية المسلمين ...

وتأثر الحليس لهذا المنظر ، واعتقد إن قريشا ظالمة للنبى ، متهمة له ، وعاد لتوه الى قريش دون أن يقابل النبى أو يكفل سفارته ... فلما أخبر المشركين بحسن نية المسلمين اتهمته قريش بأنه أعرابى جاهل لا علم له ...

واتجهت قريش الى ارسال سفير آخر تطمئن الى حكمه لمفاوضة النبى ، فاختارت عروة بن مسعود الثقفى ، فاعتذر من قبول المهمة بما رأى من سوء معاملتهم لسابقه : « الحليس » . ولكنها أكدت له أنه غير متهم عندهم ، وأنه موضع الاطمئنان فى الرأى والحكم ، فخرج هذا الرسول الدبلوماسى الجديد ، ورأى بعينيه أن النبى عليه السلام

لا يريد حربا ، وانما جاء قاصدا البيت الحرام معظما حرمته ، مؤديا فرض ربه . وكان عروة يحادث النبى بلا كلفة ولا مراعاة ... الى حد أنه كان يتناول لحية النبى وهو يكلمه ... وقد اغتاظ المغيرة بن شعبة من هذا المشهد ، وكان واقفا على رأس رسول الله ، فأخذ يضرب يد عروة كلما امتدت لتتناول لحية النبى ... ورجع عروة ـ سفير قريش ورسولها للهدنة مع المسلمين ـ الى قومه متأثرا مما رآه من عظمة النبى عليه السلام وحسن نيته وصدقه ، فقال لقريش : « يا معشر قريش ! انى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى ـ والله ـ ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه . لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه . ولا يسقط من شعره شىء الا أخذوه ؛ وانهم لن يسلموه لشىء أبدا .. فروا رأيكم ! » .

وطالت المحادثات التمهيدية بين قريش والنبى على هذا النحو ، وكان الرسل كلهم من جانب قريش كل مرة ، الى أن رأى النبى أن هؤلاء الرسل ربما ليس عندهم من الشجاعة والاقدام ما يبلغون به قومهم الأمور على صدقها ، وما يكفى لاقناع قريش برأيهم ، فاتخذ خطوة من قبله ، وهى أن يبعث من طرفه هو رسولا ، يكون أكثر شجاعة ، وأقدر اقناعا من رسل المشركين . وبعث عليه السلام رسوله فعلا ، ولكن قريشا لم تراع حق الرسل والسفراء فى التأمين ، ولم تراع رسالتهم فى البلاغ ، فعقروا جمل هذا

الرسول المسلم ، وأرادوا قتله هو نفسه ، لولا أن الأحابيش حموه ومنعوه ...

وكرر النبى عليه السلام من جهته السفارة مرة ثانية ، فأراد أن يبعث عمر بن الخطاب الى أشراف قريش للمهادنة والمفاوضة على الصلح ، ولكن عمر اعتذر قائلا : « يا رسول الله ! انى أخاف قريشا على نفسى .. وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى . وقد عرفت قريش عداوتى اياها ، وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان » . ودعا النبى عثمان بن عفان ، وقبل عثمان المهمة . وما كاد يدخل مكة حتى دعته قريش الى الطواف بالبيت العتيق ، ان شاء ! فكان جوابه جواب الرسول السياسى الكيس الحاذق : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ! وطال النقاش بين عثمان وبين رجال قريش المشركين . وكان حجر العثرة فى هذه المفاوضات هو القسم الذى أقسمته قريش أن لا يدخل محمد مكة هذا العام عنوة ... وخشوا أنهم اذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة هذا العام اهتزت مكانة قريش فى نفوس العرب ، وتحدث العرب جميعا بأن قريشا ضعفت أمام النبى وفى ذلك اسقاط لهيبتهم ...

ولم تنجح سفارة عثمان بن عفان على الرغم من أن قريشا أنست به واطمأنت اليه . وعادت المفاوضات مرة أخرى للصلح . وأوفدت قريش مندوبها : سهيل بن عمرو ،

ووفد سهيل على النبى عليه السلام ، وبدأت المحادثات للصلح والهدنة ، وكانت طويلة جدا ، وكانت تتعثر فى سبيلها ، حتى كادت تنقطع فى بعض الأحيان ، الى أن أذن الله بنجاحها ، وانجاز صلح « الحديبية » الذى كان فيه التراضى التام بين المسلمين والمشركين ... وان لم يكن فيه كل الرضا للمسلمين ، وان كان يعد مكسبا كبيرا لهم ، وفتحا مبينا عليهم . فهو الصلح أو الهدنة التى نزل فيها قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحاً مبينا » .

وفى خلال الفتح العربى لمصر ، سبقت الرسل والمفاوضات عقد الصلح الذى تم بين العرب وبين المقوقس زعيم القبط . وقد كان تسور الزبير بن العوام حصن بابليون واقتحامهم اياه سببا فى خوف المقوقس ورجاله ، وداعيا الى العزم على التقدم بطلب الصلح . وارسل المقوقس الى عمرو بن العاص رسلا لهذه المهمة ليقولوا له : « انكم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وانما أنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لمطلبكم

ورجائكم . فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء ! » .

وجاء الرسل الى عمرو بهذه الرسالة من المقوقس ، فاستبقاهم عنده عمرو يومين وليلتين ، حتى خاف المقوقس أن يكونوا قد قتلوا وقال لأصحابه : أرأيتم أنهم يستحلون فى دينهم حبس الرسل وقتلهم ؟ ! ولكن عمرا كان قد حجز الرسل عنده لكى يروا بأنفسهم حال المسلمين ، وما هم عليه من قوة وايمان ...

وعاد رسل المقوقس اليه ، فلما سألهم عن حال العرب ، قالوا : (رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم) . وكان هذا الحكم الصادق على العرب نتيجة للمعاينة التى رآها رسل المقوقس بأعينهم فى مدة احتجازهم يومين وليلتين . وقد أصاب الداهية عمرو بن العاص بهذا الاحتجاز هدفه من اطلاع المقوقس ورجاله على شدة بأس المسلمين .

وأعاد المقوقس ارسال رسله الى المسلمين يقول لهم :

ابعثوا لنا رسلا منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم الى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم !

واستجاب عمرو بن العاص لهذه الدعوة ، فبعث عشرة نفر من رجاله ، أحدهم : عبادة بن الصامت . وكان اختيار عمرو اياه لحكمة سياسية نفسية بعيدة ، فقد كان طوله عشرة أشبار ، وكان أسود اللون مخيف الطلعة ! وأمره عمرو أن يكون هو متكلم العرب ، والا يتكلم منهم أحد سواه ! فلما ركبوا المراكب الى المقوقس ودخلوا عليه ، تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ! ! وقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى ! فقال رسل العرب : ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا . وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره أميرنا عمرو دوننا بما أمره ، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله . . .

وقد كانت هذه الحركة سياسة بارعة من عمرو ، فقد أراد بها أن يظهر سواسية المسلمين ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود . ويكشف السؤال والجواب بين المقوقس ورسل العرب عن هذا ، فقد سألهم المقوقس قائلا : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وانما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ فأجابوه : كلا ! انه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا . وليس ينكَر السواد فينا .

وطال النقاش والمفاوضة بين المقوقس وبين عبادة بن الصامت رسول العرب . وطالت السفارات بين الفريقين ، حتى استؤنف القتال فى خلال المحادثات ، الى ان اضطر المقوقس واصحابه الى الاذعان لقبول الصلح .

وعندما فتح العرب المسلمون بيت المقدس فى خلافة عمر بن الخطاب رأينا الرسل والمفاوضات تقوم بدور هام فى كتابة الصلح بين العرب والروم . ونحن نعلم أن الخليفة عمر قد ترك مقامه فى المدينة وذهب ليشرف بنفسه على فتح بيت المقدس . وبينما هو معسكر « بالجابية » رأوا خيلا مقبلة نحوهم وعليها رجال بأيديهم السيوف ، ففزع المسلمون الى السلاح مخافة أن يكون الوافدون عدوا يريد الشر بهم . ولكن عمر تبسم لمرأى هؤلاء القوم وقال : مستأمنة ، وأمن أصحابه وطمأنهم ، وأمرهم أن لا يراعوا ! وكان هؤلاء المقبلون على الخيل رسل « صفرنيوس » أسقف بيت المقدس ، وقد جاءوا يتمون الصلح مع أمير المؤمنين . فصالحهم عمر بن الخطاب على صلح دمشق وعلى شروطه السخية ، بل أعطاهم صلحا أكثر منه سخاء . وكتب لهم كتابا بالأمان والصلح يقول فيه : (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين ، أهل ايلياء — يعنى بيت المقدس — من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا

من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بأيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم ، فانهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله . وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) .

* * *

وفى عهد السلطان المسلم المجاهد فى سبيل الله صلاح الدين الأيوبى نراه ينجز فتوحات كثيرة من أيدى الصليبيين فى بلاد الشام . وكان مما فتحه « بيت المقدس » بعد أن كانت قد وقعت فى يد الصليبيين وفتحوها عنوة سنة ٤٩٢ هـ بعد مذبحة استمرت أسبوعا حتى تراكمت الجثث فى الأسواق والطرقات . وكانت اعادة القدس الى المسلمين

فى عهد صلاح الدين فتحا من الفتوح ونصرا من الله . ولما اشتد حصار المسلمين للمدينة المقدسة ، ورأى الفرنج شدة القتال ، وتحكم المنجنيقات فى السور ، وتمكن النقّابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا فيما يدعون ويأتون . واتفق رأيهم على طلب الأمان والمهادنة من المسلمين ، وتسليم القدس للسلطان الأيوبى . وهنا بالطبع تظهر مهمة الرسل والموفدين فى طلب المهادنة وكتابة الصلح ، فاختاروا جماعة من أهل الرأى والزعامة فيهم الى السلطان صلاح الدين الأيوبى يفاوضونه على الهدنة والأمان وتسليم القدس الى السلطان . وأطال الرسل الكلام فيما جاءوا لأجله من السفارة فى المهادنة ، ولكن صلاح الدين امتنع من اجابتهم الى طلب الأمان قائلا : « لا أفعل الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبى ، وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

وهكذا رجع رسل الفرنجة من عند صلاح الدين خائبين محرومين ، ولم تنجح سفارتهم . فأرسل « باليان بن بارزان » ــ وهو بليان الثانى الابلينى ، وكان صاحب الرملة ومرتبته تقابل مرتبة الملك عند الفرنجة ــ يطلب الأمان لنفسه ، ورغب فى أن يحضر بنفسه عند السلطان صلاح الدين لامضاء هذا الأمر وتحريره ، فأجيب الى الحضور ، وحضر بين يدى صلاح الدين ، ورغب فى الأمان ، وسأل

فيه فلم يجبه السلطان الى ذلك ، فاستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه ـ كما يقول مؤرخو العصر الأيوبى ـ فلم يرحمه . واضطر باليان فى مفاوضته الذليلة مع صلاح الدين أن يلجأ الى لون من التهديد . بقتل من عندهم من أسرى المسلمين ـ وعددهم خمسة آلاف أسير ... والى التهديد بالقتال واحراق الأموال والأمتعة حتى لا يغنم منها المسلمون . وكان مما قاله ـ كما رواه جمال الدين بن واصل المؤرخ المتوفى سنة ٦٩٧ والقريب جدا من عهد صلاح الدين : (أيها الملك ! اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى ، وانما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظنا منهم أنك تجيبهم اليه ، كما أجبت غيرهم . وهم يكرهون الموت ، ويرغبون فى الحياة . فاذا رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ! ولا تأسرون رجلا ولا امرأة . فاذا فرغنا من ذلك كله ، أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرهما من المواضع الشريفة ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم ، وقاتلنا قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء ، ونظفر كراما) .

وهنا لم يملك صلاح الدين نفسه من الرجوع الى

اصحابه يستشيرهم ، فأجمعوا على اجابة الفرنجة الى الأمان ، وأن لا يخرجوا ويتحملوا على ما لا تدرى عاقبة الأمر فيه ، ولا عن أى شيء ينجلى الأمر . فاستجاب صلاح الدين أخيرا لطلب الصلح وبذل الأمان للفرنج . وتم بذلك صلح القدس المشهور ، وقد كان لمساعى « باليسان » ومفاوضاته ، وحسن سفارته أثر كبير فى انجازه ...

ومهمة الرسول فى الصلوح والمهادنات وطلب الأمان قد تكون انسانية ، لأنها تحقن الدماء بين الفريقين وخاصة الفريق المغلوب ، ولأنها تدع سبيلا لصفاء النفوس ولو الى حين ... ولكنها قد تكون مهمة شاقة وأليمة وخاصة حينما يضطر قوم الى تسليم بلدهم للعدو على شروط قاسية أو مهينة ، أو لا يعلم أحد الا الله مدى ما يكون من احترامها ...

ويصادفنا هذا فى معاهدة تسليم غرناطة سنة ٨٩٧ هـ ـ سنة ١٤٩١ م للأسبان بعد اشتداد الحصار عليها ، وعلى الرغم من تصميم الشعب على المقاومة . فحين اجتمع كبار الجند والفقهاء والأعيان فى البهو الكبير بقصر الحمراء للنظر فيما يأتون ويذرون من أمر هذه النكبة التى حلت بهم ، بل بالمسلمين جميعا ، أخذ أحدهم : أبو القاسم عبد الملك يشرح لهم كيف بلغ الخطب حدا لم يعد فيه مجال لمواصلة القتال ، وأجمع القوم ـ أو كادوا ـ على تسليم غرناطة ، الا معارضا واحدا ، هو أبو موسى الغسان . واتفق الجماعة

على مفاوضـــة ملك قشتالة فى التسليم . واختـير الوزير أبو القاسم عبد الملك لهذه المهمة الأليمة الشاقة .

والرسل والسفراء فى مثل هــذه الظروف البغيضة يقابلون عادة بما ينسيهم مرارة المهمة التى انتدبوا لها ، حتى تهون عليهم العملية . وفى هذا نوع من الرعاية والمجاملة لمهمة الرسول فى الصلح . وقد حدث هذا لرسول المسلمين الغرناطيين الى ملك قشتالة ، فقــد استقبله هــذا الملك ـ فرديناند ـ بالحفاوة ، وندب لمفاوضته أمينه وكاتم سره « الدوق فرناندو دى فاڤرا » ، وقائده « جوانزالفو دى كوردوڤا » الذى كان خبيرا بالشئون الاسلامية ، ويحسن الحديث باللغة العربية لكثرة مخالطته وتنقلاته بين العرب المسلمين ، وقد دارت المفاوضات فى جو من التكتم ، ولم تتخذ لها مكانا واحدا ، بل كانت تدور فى غرناطة أحيانا ، وفى محلة قريبة منها تعرف بضيعة شريانة بعض الحين . واستمرت المفاوضات وقتا طويلا ، نظرا لكثرة المسائل ، وتشعب الأمور فيها ، وأخيرا انتهت بالنجاح ، وكان ما كان من الشروط السبعة والستين التى اشتملت عليها معاهدة تسليم غرناطة ...

واختيار المكان الملائم للمفاوضـــة ، والتكتم فيهــا ، وابعادها عن فضول العيون والآذان المتطلعة هو من الشروط الأساسية التى تراعى دائما فى التمهيد لعمل المهادنات وكتابة الصلوح . واذا كنا رأينا هــذا قد روعى فى المفاوضــات

لتسليم غرناطة ، فقد رأيناه قبل هذا بكثير منصوصا عليه فى معاهدة التحكيم بين الامام على بن ابى طالب ومعاوية . فقد نص فيها على أن الحكمين المختارين من قبل على ومعاوية ، وهما أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، ينزلان منزلا متوسطا عدلا بين أهل العراق والشام ، ولا يحضرهما فيه الا من احبا ورضيا به عن تراض منهما . وقد روعى فى اختيار منزل الحكمين هنا اعتبارات أخرى لا تخفى على القارىء ...

واكثر ما كانت الرسل والسفارات لمفاوضات الهدن والصلح بين العرب وغيرهم ، فى عهد الفاطميين والأيوبيين المماليك ، وفى بلاد الأندلس فى عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وملوك بنى الأحمر فى غرناطة . فقد كانت المناوشات والمحاربات والخصومات بين الطرفين تقتضى قيام الضرورة لعمل المهادنات وعقود الصلح والأمان ، وتصادفنا فى عهد صلاح الدين الأيوبى كثير من هذه السفارات .

واذا كنا قد أشرنا قبلا الى رسالة الفرنجة ، وباليان بن بارزان الى صلاح الدين للتفاوض فى شأن الأمان وتسليم بيت المقدس للمسلمين سنة ٥٨٣ هـ ، فان الزمن لم يطل بنا مرة أخرى لنشهد رسل ملك « الأنكلتير » الى صلاح الدين أيضا سنة ٥٨٨ هـ . أى بعد خمس سنوات من فتح بيت المقدس ، فقد قصد الفرنجة والصليبيون الى القدس سنة ٥٨٨ هـ على نية استردادها من المسلمين واعادتها

الى أيديهم كما كانت قبل فتح صلاح الدين اياها . وعاهد المسلمون الله على صدق الجهاد والدفاع حتى لا يتمكن الصليبيون منهم ولا من العاصمة المقدسة . وأمعن الصليبيون فى التصميم على القتال .

ورأى الصليبيون أن يبعثوا رسلهم للمفاوضة على الصلح حقنا للدماء ، أو لعلها كانت حيلة منهم حتى يستعيدوا قوتهم ، فأرسل ملك الأنكلتير رسولا الى صلاح الدين يقول له : « قد أهلكنا نحن وأنتم . والأصلح نحقن الدماء . ولا ينبغى أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى ، بل أريد المصلحة ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح ! ثم لايجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولايجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم . وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، وسلمته اليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا . وان جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة . وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك فى المراسلة لما كانت المراسلة تجرى مع الملك العادل ـ يعنى أخا صلاح الدين ـ قلتُ يتركها وأعرضتُ عنها . ولو أعطيتنى قرية أو مزرعة قبلتُها ، وقبّلتها ... »

وعرض صلاح الدين كتاب ملك الانجليز (الأنكلتير) ورسالة الرسول على أصحابه ومستشاريه ـ كعادته دائما فى أكثر

ما كان يهم به من الأمر ـ فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، بسبب ما أحاط بالمسلمين من ظروف ، وما تراكم عليهم من الديون التى تتطلبها نفقات الحروب . ورد صلاح الدين على كتاب الملك الانجليزى ، الذى عاد ثانية فأرسل الرسول ودارت المحادثة بين السلطان صلاح الدين والرسول على نحو حازم من السلطان ، ونحو ماكر من الرسول الذى قال على سبيل المناصحة :

ان الصليبيين قد نزلوا عن القدس ، ما عدا الزيارة . وانما يقولون ذلك تصنعا ، وأنهم راغبون فى الصلح ، وأن الأنكلتير لا بد له من الرواح الى بلده .

فيجيبه السلطان صلاح الدين فى حزم :

ـ ان القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة .

فيقول الرسول :

ـ وليس على الزوار فى القدس شىء يؤخذ منهم ؟

فيجيبه صلاح الدين الى ذلك ، ويقول له :

ـ أما البلاد فعسقلان وما والاها وما وراءها فلا بد من خرابه .

فيقول الرسول :

ـ ان الملك قد خسر فى أسوارها مالا جزيلا ...

* * *

وليس من الضرورى لعقد المهادنات والصلوح أن تكلل مفاوضات الصلح ، ومحادثات الأمان بالنجاح . فقد تصل الى مرحلة تتعثر فيها ببعض الأمور التى لا تجد لها مخرجا ، أو ببعض العقد التى لا تصادف لها حلا . ويصادفنا مثل هذا الحادث فيما حدث بين الملك العادل الأيوبى ـ أخى صلاح الدين ـ وبين ملك الأنكلتير ... فى شهر شعبان سنة ٥٨٦ هـ ، ولم يكن المتفاوضان هنا رسولين عن ملكين ، أو نائبين عن حاكمين ، بل كان كل منهما ملكا . وقد حدث هذا فى أثناء حرب عسقلان بالشام بين المسلمين والفرنجة ، وقد طالت الحرب ، حتى ملها الصليبيون انفسهم ، وقد كان السلطان نفسه (يسير بنفسه بين الجاليشية ، ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنيبين لاغير ... وهو يسير من طُلْب الى طُلْب ـ وهو الكتيبة من الجيش بالاصطلاح الكردى ـ يحثهم على التقدمة ، ويأمرهم بمضايقة القوم ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيالتهم بالزنبورك والنشاب) .

وندع ابن واصل المؤرخ يكمل بقية حديث المفاوضة بين الملكين قائلا : (ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف ، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب . فطلب ملك الأنكلتير الاجتماع بالملك العادل خلوة ، فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : انه قد طال بيننا القتال ، ونحن جئنا

فى نصرة اصحاب الساحل . فاصطلحوا انتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه .

فقال الملك العادل :

ـ على ماذا يكون الصلح ؟

فقال : على أن يسلم الى أهل الساحل ما اخذتم من البلاد !

فأبى الملك العادل ذلك ، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل . فرجع مغضبا ...) .

الشروط

فى المعـــاهدات والمهـــادنات

تختلف المعاهدات والمهادنات من حيث طولها وقصرها ، ومن حيث اشتمالها على الشروط المتضمنة لها عددا وقوة وتأثيرا .

فقد كانت معاهدة النبى عليه السلام مع أهل أيلة قليلة الشروط ، حتى بلغ عددها ثلاثة فقط . وهى : تأمين سفنهم وقوافلهم فى البر والبحر ، والزامهم بالتعويض عن كل تلف يتلفونه ، أو حـــدث يحدثونه ، وتأمين ميـــاههم وطرقاتهم .. وهذا هو نص تلك المعـــاهدة التى تعد من المعاهدات الأولى فى الاسلام :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليحنّة بن رؤبة وأهل ايلة . سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخـــذه من الناس . وأنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يروونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر) .

على أن معاهدة « الحديبية » أو صلح الحديبية الذى قام بين النبى وبين قريش قد اشتمل على بضعة شروط . وكان يمثل المسلمين فيه محمد عليه السلام ، ويمثل قريشا فيه سهيل بن عمرو . واصطلح فيه الطرفان على ما يأتى :

(اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا الى مصر أو الى الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله .

وعلى أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا اسلال ولا اغلال .

وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأن ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، ولا تدخلها بغيرها) .

ويمضى الزمن بالأمة العربية الاسلامية بضعة أو بضعتين من السنين ، فنرى العرب ينساحون فى الأرض ويتجهون الى الفتوح ، وهنا لا بد من قيام المعاهدات والمهادنات ،

ولكننا نلاحظ فيها الوجازة فى عدد الشروط ، أو فى مواد الهدنة ، الا أنها تتسع قليلا أكثر مما كانت عليه فى عهد النبى عليه السـلام .

فنرى المعاهدة التى عقدها عمرو بن العاص مع أهل مصر تتسع موادها وشروطها بعض الشىء ، فتشتمل على ما يأتى :

(أعطى عمرو بن العاص أهل مصر الأمان ، على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم ، وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب .

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليه ممن جنى نصرتهم ، فان أبى أحد أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم . وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك .

ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن ، حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم أثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم) .

ومن عجب أن هـذا الصلح على كثرة تساهله وروح السماح الاسلامى فيه لما أرسله المقوقس الى هرقل ملك الروم ليعلمه به ، كتب اليه الملك يقبح رأيه ، ويعجـزه ،

ويرد عليه ما فعل ، ويحرضه على التنصل من هذا العهد والتحرر من التزاماته ...

ويمتـد بنا الزمن ومسـافة التاريخ خطوات أخـرى فسيحات ، فنرى المعاهدة التى تمت بين المصريين وبين الملك الفرنسى لويس التاسع عقب هزيمته المنكرة فى الحملة على مصر سنة ٦٤٣ هـ ـ سنة ١٢٤٥ . وقد تمت المعاهدة فى سنة ٦٤٨ عقب أسر لويس التاسـع فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وقد بلغت شروطها ثمانية ، ونلخصها فيما يلى :

(١) أن يقوم الملك لويس التاسع بتسليم مدينة دمياط فدية عن نفسه ، وذلك طبقا للاتفاق السابق مع السلطان توران شاه الأيوبى .

(٢) أن يدفع الملك الفرنسى مال الفدية المفروضة على اخويه وعلى كبار الأسرى من الأشراف والنبلاء ، وقدره مائتا الف قطعة ذهبية امبراطورية ، مسكوكة بصورة التاج الامبراطورى ، على أن يدفع المبلغ على نصفين : يدفع الأول منهما معجلا قبل رحيل الحملة عن الشـواطىء المصرية ، ويكون دفع النصف الثانى بعد وصول الملك لويس التاسع الى عكا .

(٣) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية سراح الملك الأسير لويس التاسع وأخويه ، وكذلك كبار الأسرى من البارونات الصليبيين مباشرة وفى وقت واحد ، بعد تنفيذ الشرطين السابقين .

(٤) أن يقوم الملك لويس التاسع باطلاق سراح جميع الأسرى الذين عنده من العساكر المصرية الأيوبية ، فضلا عن الأسرى السابقين الذين وقعوا منهم فى أيدى الصليبيين ؛ بعد انقضاء أجل الهدنة التى كانت بين الملك الكامل وفردريك .

(٥) أن يعمل الملك لويس التاسع على اقرار السلام فى المدن التى لم يزل الصليبيون يحتلونها فى فلسطين .

(٦) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية سراح جميع الأسرى الصليبيين الذين عندهم من حملة الملك لويس التاسع على مصر ، فضلا عن جميع الصليبيين الذين عندهم منذ انقضاء أجل الهدنة بين الملك الكامل الأيوبى وفردريك .

(٧) أن يقوم أمراء المماليك البحرية الصالحية بالمحافظة على الآلات الحربية والمؤونة والأثقال الصليبية التى سوف يتركها الصليبيون مؤقتا فى دمياط ، وذلك حتى تحين الفرصة لنقل هذه المواد الحربية وغير الحربية الى المدن التى لم تزل بأيدى الصليبيين فى فلسطين .

(٨) أن يشمل أمراء المماليك البحرية الصالحية بأمانهم جميع المرضى والعجزة ، وجميع المتخلفين بدمياط من الصليبيين غير المحاربين وأرباب التجارة ، لبيع أملاكهم

ومتاجرهم وموجوداتهم بدمياط ، وأن يكون مسموحا لكل فرد من هؤلاء وأولئك بالرحيل برا ، أو بحرا عن دمياط ، وفقا لمصلحته الفردية .

ويمتد بالعرب والمسلمين الزمن قرابة قرنين ونصف قرن من الزمان ، أو بالضبط فى اكتوبر سنة ١٤٩١ الموافق اواخر سنة ٨٩٦ هـ لنرى المعاهدة الأليمة التى كانت السبب فى اجلاء العرب المسلمين عن أرض الأندلس بعد أن فتحوها وأقاموا فيها وعمروها بضعة قرون . وقد كان جلاؤهم — أو اجلاؤهم عنها — بسبب تلك الخلافات التى دبت بين أمرائهم وزعمائهم ، حتى تمكن العدو منهم ، واستطاع أن ينفذ الي صفوفهم ، وأن يقضى على وحدتهم ، بل استطاع فى نهاية المطاف أن يدمرهم تدميرا . . .

ولعل هذه المعاهدة — أو وثيقة الجلاء عن الأندلس — كانت أكثر المعاهدات العربية الاسلامية اشتمالا على مواد ، واحتواء على شروط ، فقد بلغت شروطها وموادها سبعة وستين شرطا ومادة ، كما روى المؤرخون ، وعلى رأسهم المقرى صاحب كتاب نفح الطيب فى الجزء الثانى من كتابه . . . ومن هذه الشروط :

تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال . وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم . واقامة

الشريعة بينهم على ما كانت ، ولا يحكم على احد منهم الا بشريعتهم . وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك. وأن لا يدخل النصارى دار مسلم . وأن لا يغصب النصارى أحدا من المسلمين . وأن لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبـل . وأن يفتكّ ــ أو يطلق ــ جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا ولا سيما أعيانا نصت المهادنة عليهم ، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسلمين فى قشتالة والأندلس . وأن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم وأعراضـهم . وأن يتمتع المسلمون احرارا بشعائر دينهم من الصلاة والصوم والأذان وما يتبعها . وأن تبقى المساجد حرما مصونة . وأن لا تعطى غلات أوقاف المساجد والمدارس وجهات البر الا للمشرفين عليها من أهل الاسـلام . وأن لا يكلف أحد من المسلمين ضيافة الأجناد النصارى . وأن يسـير المسـلم فى بلاد النصارى وممالكهم آمنا على نفسه وماله . وأن لا يحمل المسلم أية علامة مميزة كما يحمل اليهود وأهل الدجن . وأن يحتفظ المسلمون بأملاكهم أبد الدهر ، وأن يتصرفوا فيها لحسابهم الخاص ، وأن لا يدفعوا من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملكهم . وأن يعفوا من الضرائب اطلاقا مدة ثلاث سنين . وأن يكون لهم حق الاتجار مع بلاد المغرب ومملكة قشـتالة والأندلس دون مكوس غير التى يدفعها

وقد كان العرب المسلمون دائما فى معاهداتهم ومهادناتهم يراعون جوانب انسانية نبيلة ، ويلزمون أنفسهم باحترامها والتقيد بها . وخذ ما شئت من معاهدات صلح الحديبية ، وأيلة ، ومعاهدة صلح خالد بن الوليد مع الشام ، ومعاهدة أبى عبيدة معهم ، ومع أهل بعلبك ، وصلح عمرو بن العاص مع أهل مصر ، ومعاهدة عبد الله بن سعد بن أبى السرح مع اهل النوبة ، ومعاهدة المصريين مع لويس التاسع ملك فرنسا عقب هزيمته وأسره فى مدينة المنصورة وغيرها وغيرها من عشرات المعاهدات والمهادنات والصلوح التى عقدها العرب مع غيرهم ، تجد ذلك الجانب الانسانى الكريم فيها ، وتجد عوامل الرحمة والعدل والانصاف وخوف الله والاشفاق على المنهزم أو الجانب الأضعف . كما تجد فيها حسن النية فى الاشتراط ، وفى التنفيذ ، والبعد عن الانتقام بحال من الأحوال .

فاذا لمح الطرف الضعيف فى المعاهدة أو المهادنة سوءا من الطرف الآخر القوى ، فانه لا يلبث أن يبدى من ذلك تردده وتوجسه وتخوفه . وقد كان هذا شأن المسلمين فى التسليم بشروط تسليم مدينة غرناطة للفرنجة سنة ٨٩٧ هـ . فقد كانت الشروط السبعة والستون ـ التى ذكرنا بعضا منها ـ أفضل ما يمكن أن يحصل عليه منهزم فى مثل هذه النكبة ، وفى مثل تلك الظروف التى أحاطت

محمد ـ آخر ملوك المسلمين بالأندلس ـ مدينة غرناطة ـ
عاصمة ملكه المصدوع ـ الى منطقة « البشرات » حيث
يقطع ضياعا يعيش من ريعها ، وأن يكون مقره فى هذه
المنطقة مدينة أندرش ـ من أعمالها ـ تحت طاعة ملك
قشتالة وفى ظل حمايته . وأن تقدم مدينة غرناطة خمسمائة
من أعيانها كفالة بالاخلاص ، وضمانا للطاعة ...

هذه هى بعض شروط اتفاقية غرناطة للتسليم .
ولكن هل احترمها الفرنجة من جانبهم ؟ وهل حافظوا على
شرف القلم الذى كتبت به ؟ اننا نترك المؤرخ أحمد زينى
دحلان يقول فى هذا الصدد : (... ثم ان النصارى نقضوا
تلك الشروط شيئا فشيئا ، ونكثوها عروة عروة) ، ونترك
بقية الحديث المؤلم الى فصل خاص نعقده لنقض شروط
المعاهدات والمهادنات أو نسخها أو مفاسختها ...

ويعود الأمل فى احترام شروط المعاهدات وتوقع القيام
بها وصون التزاماتها الى قيام عنصر من الثقة بين الطرفين
المتعاقدين . فاذا فقد هذا العنصر وفقد معه حسن النية
المفروض توافرها بين الطرفين تسرب الشك والتوجس الى
النفوس . والمنتصر دائما ، أو الطرف الأقوى بين المتعاقدين
هو الذى يضع الشروط بل يمليها ، على أن يترك للطرف
الأقل قوة والأضعف جناحا ، أملا فى التقدم باقتراح للتعديل
أو التخفيف من قساوة بعض الشروط .

وقد كان العرب المسلمون دائما فى معاهداتهم ومهادناتهم يراعون جوانب انسانية نبيلة ، ويلزمون أنفسهم باحترامها والتقيد بها . وخذ ما شئت من معاهدات صلح الحديبية ، وأيلة ، ومعاهدة صلح خالد بن الوليد مع الشام ، ومعاهدة أبى عبيدة معهم ، ومع أهل بعلبك ، وصلح عمرو بن العاص مع أهل مصر ، ومعاهدة عبد الله بن سعد بن أبى السرح مع اهل النوبة ، ومعاهدة المصريين مع لويس التاسع ملك فرنسا عقب هزيمته وأسره فى مدينة المنصورة وغيرها وغيرها من عشرات المعاهدات والمهادنات والصلوح التى عقدها العرب مع غيرهم ، تجد ذلك الجانب الانسانى الكريم فيها ، وتجد عوامل الرحمة والعدل والانصاف وخوف الله والاشفاق على المنهزم أو الجانب الأضعف . كما تجد فيها حسن النية فى الاشتراط ، وفى التنفيذ ، والبعد عن الانتقام بحال من الأحوال .

فاذا لمح الطرف الضعيف فى المعاهدة أو المهادنة سوءا من الطرف الآخر القوى ، فانه لا يلبث أن يبدى من ذلك تردده وتوجسه وتخوفه . وقد كان هذا شأن المسلمين فى التسليم بشروط تسليم مدينة غرناطة للفرنجة سنة ٨٩٧ هـ . فقد كانت الشروط السبعة والستون ــ التى ذكرنا بعضا منها ــ أفضل ما يمكن أن يحصل عليه منهزم فى مثل هذه النكبة ، وفى مثل تلك الظروف التى أحاطت

بالعرب المسلمين ، لو أن الفرنجة صدقت نياتهم ، واخلصوا فى عهودهم . وقد رضى بها المسلمون بعد تردد وتوجس ، فقد كانت الشكوك والظنون تساورهم فى اخلاص أعدائهم وصدق نياتهم . ولم تخف هذه الشكوك على أحد من عدو المسلمين المنتصر ، وقد لاحظ فرديناند وايزابلا ذلك ، فأرادا أن يبثا الطمأنينة فى قلوب المسلمين ــ خديعة منهم ورياء ــ فأعلنا فى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٤٩١ م ــ سنة ٨٩٧ هـ ــ وأكدا الاعلان بالقسم ــ أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى أرضهم أو فى أى مكان يشاءون ، وأن حريتهم فى الدين مكفولة ، وأموالهم مصونة ... ولكن هذا التوكيد لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، كما يقولون ...

وأين هذا الموقف المتوجس المتشكك من المسلمين ــ وقد لاحظه أعداؤهم أنفسهم ــ من موقف المشركين من قريش ، أو اليهود ، أو القبط فى مصر ، أو الصليبيين فى عهد لويس التاسع وحملته المخفقة على مصر ؟ ؟ لقد كان هؤلاء يقبلون على التهادن مع العرب والمسلمين فى حرية كاملة ، وثقة مطلقة ، واطمئنان الى احترام العهود والمواثيق . لأن هذا الوفاء والاحترام للعهود هو من أوامر الاسلام التى أوصى الله بها فى كتابه الكريم ، حيث يقول : (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ،

فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين ..) .

وقد وسم الله الناقضين للعهود ، الناكثين للوعود بشر ما يوسم به مخلوق ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال : (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون) ..

والواقع أن شروط المعاهدات والمهادنات لا يحدها حد ، ولا يقيدها شرط ، فهى متروكة لظروف الطرفين المتعاقدين ولظروف المعاهدة نفسها . وما أصدق صاحب كتاب « صبح الأعشى » وهو يقول فى هذا المعرض : « وليس لها حد يحصرها ، ولا ضابط يضبطها ، بل بحسب ما تدعو الضرورة اليه فى تلك الهدنة ، بحسب الحال الواقع » .

والملاحظ دائما فى شروط الهدنة والمصالحة أن المشترط يحتاط لكل الاحتمالات ، ويعمل حسابا لكل شىء ، كأن

يشترط أحد الطرفين على الآخر أن يكون لوليه مواليا ، ولعدوه معاديا ، ولمسالمه مسالما ، ولمحاربه محاربا . وقد لوحظ هذا الملحظ فى الهدنة التى عقدت بين الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون السلطان المملوكى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ، وبين الدون حاكم أرغونة وصاحب برشلونة من بلاد الأندلس ، وكانت هذه المهادنة سنة ٦٩٢ هـ وفيها نص على (أن الملك الدوق حاكم أرغونة هو وأخواه وصهراه ، أصدقاء من يصادق الملك الأشرف وأولاده ، وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجة وغير الملوك الفرنجية) .

ومن مواجهة الاحتمالات فى شروط المهادنات والصلوح الاحتياط حتى لكسر مركب من مراكب أحد الطرفين المتعاقدين وغرق أهله وبضائعهم ... ففى الهدنة التى عقدت بين السلطان المصرى المملوكى المنصور قلاوون وولده الصالح على من ناحية ، وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد الساحل الشامى سنة ٦٨٢ من ناحية أخرى ، نرى هذا الشرط التالى :

(... وعلى أنه اذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده ، التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتها من المسلمين وغيرهم ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمنا على الأنفس والأموال والأتباع

والمتاجر . فان وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم اليهم ، وان عدموا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده ، ويحتفظ بموجودها ان لم يكن صاحبها حاضرا ، الى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا ، أو المقدم ..)

وهكذا ترى مبدأ « المعاملة بالمثل » يظهر فى هذا الشرط ، مما يؤكد وجود هذا المبدأ فى التعامل الدولى من قديم ..

ونجد مثل هذا الاحتياط لمواجهة احتمالات انكسار المراكب مذكورا أيضا فى المهادنة التى عقدت بين السلطان خليل بن قلاوون ، وبين الدون حاكم أرغونة وصاحب برشلونة التى أشرنا اليها قبل ذلك ، والتى عقدت سنة ٦٩٢ هـ . ولعل ايراد هذا النص فى هذه المعاهدة يرينا الفرق بين أساليب التعبير فى نصوص المهادنات حتى فى العهود المتقاربة ، فليس بين المهادنتين السابقتين الا مدى عشر من السنين . يقول الشرط الخاص بانكسار المراكب فى مهادنة السلطان الأشرف خليل : (وعلى أنه متى انكسر مركب من المراكب الاسلامية فى بلاد الملك دون حاكم أرغونة ، أو بلاد أخويه أو بلاد صهريه ، فعليهم أن يخفروهم ، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم ، ويساعدوهم على عمارة

مراكبهم ، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعهم الى بلاد الملك الأشرف . وكذلك اذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم ارغونة ، وبلاد أخويه وصهريه ، ومعاهديه فى بلاد الملك الأشرف ، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه ...)

وقد يكون الصلح على شروط معقولة ، أو شروط جائرة ظالمة ، تبعا لنفسية المشترط وقدرته على الجور ، كما قد يكون الصلح على شروط عادلة متكافئة بين الطرفين المتعاقدين اذا كانا متكافئين فى القوة أو قريبين من ذلك .

وقد يكون الصلح على شرط غريب ، أو أمر عجيب ، كاشتراط زواج معين ، أو مصاهرة خاصة ، ويجرى التفاوض بين المتهادنين على أساس هذا ، أو على الأمل به .. ! ! ومن أغرب ما صادفه التاريخ العربى الاسلامى من ذلك ، الشرط الذى وضعه ريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز على السلطان صلاح الدين الأيوبى ــ زعيم المسلمين والعرب فى عصره ــ وهو أن يتزوج الملك العادل الأيوبى ــ أخو صلاح الدين ونائبه ــ بالأميرة الانجليزية الأرملة اخت ملك الانجليز ! وأن يكون للزوجين ملك القدس وعكا ! ويتوجا ملكين !!

ولقد رفض صلاح الدين الأيوبى هذا الشرط الغريب ، واستنكره ، وعده ضربا من ذلك المكر الانجليزى . ولقد كانت أخت الملك ريتشارد هذه زوجة لصاحب صقلية من قبل ، ولكن الموت اختطف زوجها بعد حياة زوجية قصيرة ،

فجاء بها أخوها ملك انجلترة من الجزيرة الصقلية ، ليتوجها ملكة على القدس وبلاد الساحل الشامية . ثم ذهبت به الآمال والأمانى أبعد من هذا ، فرأى أن يزوجها من « الملك العادل » الأيوبى ، لعله يضمن بهذا الزواج أن يكون « زيت الانجليز فى دقيقهم » كما يقول المثل الشائع بيننا ! ! .

وأبدى الملك الانجليزى استعداده لأن يرحل عن بلاد الشرق العربى الى بلاده فورا ، متى تم الزواج ، وتسلم الملك عود الصليب ، واستقر الداوية والاسبتارية — وهم صليبيو الشام — فى القرى والحصون ، وفك الأسرى من الجانبين ، واستقر الصلح ...

وذهب الملك ريتشارد الانجليزى فى أوهامه وأحلامه الى أبعد من هذا ، فحين رأى الرفض المطلق ، والسخرية المريرة من جانب صلاح الدين وأخيه الملك العادل لهذا العرض العجيب ، والشرط السخيف ، زعم لرسول صلاح الدين اليه — واسمه ابن النحال — أن أخته أبت أن تتزوج بالملك العادل الا اذا دخل فى النصرانية ! !

ونترك المؤرخ بهاء الدين بن شداد يذكر لنا طرفا من قصة هذا الشرط العجيب فى مشروع الهدنة بين المسلمين والصليبيين : (فلما مثلنا — وكان ابن شداد مقربا الى صلاح الدين — بالخدمة السلطانية ، عرضت عليه — يعنى على صلاح الدين — الحديث ، وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة ، فبادر الى الرضا ، معتقدا أن الملك لا يوافق على

ذلك أصلا ، وهو مكر وهزل منه . وسيَّر صلاح الدين والعادل بهذا الرضا رجلا اسمه : ابن النحال ، فلما وصل الى مخيم العدو ، ولقى الملك بادره الملك قائلا : ان أخته رفضت الزواج الا أن يتنصَّر العادل ، ثم إدعى الملك أن الكهنة قد أنكروا عليه هذا التزويج ، فأرسل الى البابا رسولا يعود فى ستة أشهر ، فان اذن البابا وقع الزواج والصلح ، وان لم يأذن فمن حق الملك أن يزوج العادل بنت أخيه بدون اذن ، لأنها بِكر ... فانفصل القوم !!) .

الإشهاد على المهادنات

والصلح

نلاحظ فى كل المهادنات وعقود الصلح التى عقدت فى عهد النبى عليه السلام والخلفاء الراشدين أنها تشتمل فى آخرها على أسماء الرجال الذين شهدوها وشهدوا عليها . نكان ينص فى آخر وثيقة الصلح أو المهادنة على ذكر هؤلاء الشهود . وهو تقليد جرى عليه النبى فى مهادناته مع المشركين من قريش واليهود والنصارى من أهل نجران وغيرهم .

وليس فى ذلك التقليد بأس ، فالعقود ــ غادة ــ سواء اكانت مدنية أو للنكاح يشترط فيها شهادة الشهود . وقد نص القرآن فى عقود الدين على وجوب الاشهاد عليها كما فى قوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وأمرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما فتذكّر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دُعوا .

وفى المهادنات والوثائق السياسية زمن الرسول عليه السلام كان الشهود على الصلح الذين ينص عليهم فى آخر

عقد المهادنة اثنين أو أكثر ، ولا حد لهذه الكثرة ، الا أنها الكثرة التى تدخل فى نطاق المعقول والمقبول . ففى العهد الذى كتبه النبى للحارث بن كعب وأهل ملته من النصارى نرى أن الشهود عليه واحد وثلاثون شاهدا ، منهم ابن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وأبو ذر الغفارى ، والزبير بن العوام ، وزيد ابن ثابت ، وعمار بن ياسر ، وحسان بن ثابت ، وجعفر بن أبى طالب .

ولعل هذا العهد هو أكثر العهود الاسلامية العربية امتلاء بالشهود فى عهد النبى عليه السلام . وان كنا نجد فى أثناء الخلاف الذى نشب بين على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان عقدا للتحكيم بين الطرفين فى حق الاستخلاف اشتمل على شهادة شهود كثيرين جدا يبلغ عددهم خمسين شاهدا ، منهم ستة وعشرون من رجال على وأنصاره وأولاده ، وأربعة وعشرون من أهل الشام .

فالأولون منهم : الحسن بن على ، وأخوه الحسين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، والأشتر النخعى .

وأما الشهود من أهل الشام فمنهم : حبيب بن مسلمة الفهرى ، وعبد الله بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبى سفيان ، ومحمد بن أبى سفيان ، ومحمد بن عمرو بن العاص .

ولم أستطع فيما أجلت فيه النظر من عقود وعهود اسلامية أن أعثر على عقد مثل هذا ، من حيث هذا العدد الوافر من الشهود ، كما لم أعثر ـ فيما تحت يدى من وثائق وعهـود ـ على عقد يشتمل فى ذيله على أقل من شاهدين اثنين .

فمن الوثائق التى شهد عليها اثنان ، كتاب النبى لوفد ثمالة من عمان ، فقد كان شاهداه سعد بن عبادة ، ومحمد ابن مسلمة . أما العهـد المجدد الذى كتبه أبو بكر لأهل نجران فقد شهد عليه أربعة من الشهود هم : المستورد بن عمرو ، وعمرو مولى أبى بكر الصديق ، وراشد بن حذيفة ، والمغيرة بن شعبة . على حين أن المعـاهدة التى كان قد عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران قد شهد عليها خمسة هم : أبو سفيان بن حرب ، وغيلان ابن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة .

ويلاحظ أن الشهود على المهادنات والصلوح هم عادة من أهل الطرفين المتهادنين ، لا من أهل طرف واحـد . وهذا هو المعقول حتى تتوثق المهادنة بشـهادة ناس من الفريقين جميعا . ونرى ذلك أول ما نراه فى صلح الحديبية الذى قام بين المسلمين وقـريش فى السنة السادسـة من الهجرة ـ أى بعد انقضاء ست سنين منـذ هجرة النبى

الى المدينة ــ فقد شهد عليه رجال من المسلمين ، ورجال من المشركين . أما المسلمون فهم أبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل ابن عمرو ، وسعد بن أبى وقاص ، وابن سلمة . وأما المشركون فكان من شهودهم مكرز بن حفص .

ولم تخل المهادنات والصلوح الأولى فى الاسلام من ذكر اسم الكاتب الذى كتب وثيقة الهدنة أو عقد الصلح ، ففى هدنة الحديبية نرى أن الذى كتب هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد جاء ذكره فى آخر الوثيقة بعد ذكر الشهود ، وفى معاهدة النبى عليه السلام مع أهل « مقنا » التى عقدت سنة تسع من الهجرة نرى أن الذى كتبها أيضا هو على بن أبى طالب . وفى رواية أخرى لهذه المعاهدة ــ ترجع الى نص مكتوب بالعبرية والعربية ومحفوظ فى مكتبة جامعة كمبريدج ــ نرى أن الذى كتب هو على بن أبى طالب (بخطه) ، وأن « رسول الله يملى عليه حرفا حرفا » .

وفى النصوص الأولى للمعاهدات والمهادنات الاسلامية كان ينص فى الوثيقة على الذى كان يملى نصوص الهدنة بالاضافة الى النص على الشهود والكاتب الذى كتب .

وتصادفنا فى كتاب المعاهدات والمهادنات والصلوح الاسلامية فى عصر النبى والخلفاء الراشدين مجموعة لا بأس

بها من الصحابة والتابعين ، منهم على بن أبى طالب . والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن أبى بكر ، وخالد بن سعيد ، وعبد الله بن زيد ، وشرحبيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وحمران بن أبان ــ وكان كاتبا لعثمان بن عفان ــ والعلاء بن عتبة ، وأبى بن كعب ، والعلاء بن الحضرمى ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وثابت بن قيس ، والزبير بن العوام.

كما تصادفنا فى تلك المهادنات والمعاهدات أسماء شهود كثيرين من كبار رجال الصحابة والتابعين ، منهم أبو بكر الصديق ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبى وقاص ، وابن مسلمة ، وهم شهود صلح الحديبية ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ، وهم شهود معاهدة مقنا فى السنة التاسعة من الهجرة . وأبو سفيان ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة وهم شهود معاهدة النبى مع نصارى نجران . وعثمان بن عفان ، ومعيقيب وهما شاهدا صلح عمر مع أهل نجران . وعبد الرحمن بن ربيعة ، وسلمان بن ربيعة ، وبكير بن عبد الله ، وهم شهود معاهدة سراقة بن عمرو ــ عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ مع شهر بزار وأهل أرمينية ، التى أعطى فيها الأمان للأرمن ؛ الأمان لأنفسهم وأموالهم وملتهم ، وأن لا يضاروا ولا ينتقضوا . وأبو عبيدة

عامر بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، وقضاعى بن عامر ، وهم شهود معاهدة خالد بن الوليد مع أهل دمشق الشام فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وقد يجمع الكاتب بين الشهادة والكتابة فى العقد للمهادنة والمصالحة ، وهو حينئذ له صفتان : صفة الكتابة وصفة الشهادة ؛ ومن الأمثلة على ذلك ما كان من أمر شرحبيل بن حسنة ، فقد شهد على معاهدة النبى للداريين كما كان هو الكاتب لها . وكذلك معاوية بن أبى سفيان ، فقد كان كاتبا لعهد النبى الى أهل جرش كما كان شاهدا فيه مع عمر بن الخطاب .

ونرى معاوية فى معاهدة أخرى يجمع بين صفتى الشهادة والكتابة ، وذلك فى الصلح الذى أعطاه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس ــ ايلياء ــ فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، فقد كان معاوية كاتب هذا الصلح ، وواحدا من الشهود الأربعة فيه ، وهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية .

وينص صاحب كتاب « صبح الأعشى » على ضرورة الاشهاد على عقود الصلح والمهادنات ، ويجعل ذلك مما يلزم الكاتب فى كتابة الهدنة ، ويقول فى ذلك : (وقد جرت العادة على أنه يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته

ليقضى على ملكهم بقولهم وان كان مخالفا فى الدين . وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم أشهد على مصالحته مع قريش رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين . وربما طلب النائب عن الملك الغائب احضار نسخة مهادنة من جهة مستنيبه على ما وقع به العقد ، مشمولة بخط الكتّاب ، مشهودا عليه فيها بأهل مملكته ، أو تجهز اليه نسخة يكتب عليها خطه ، ويشهد عليه فيها أهل مملكته . والغالب الاكتفاء بالرسل فى ذلك) .

ويلاحظ أن الذى كان يكتب للنبى عهود صلحه وهدنه ومعاهداته جماعة من الكتّاب ، فقد كان عليه السلام أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد كان بعض الخلفاء الراشدين وعمالهم وقواد الفتوحات الاسلامية والأمراء العرب يكتبون عهودهم بأيديهم ، فلا يحتاجون معها الى كاتب .

أما فى العصور التالية فقد كان يقوم بكتابة العهود والمهادنات كتاب مخصوصون وخاصة من رجال دواوين الانشاء والرسائل ، كالقاضى الفاضل ، وزير صلاح الدين الأيوبى ، وابن شداد مؤرخه وكاتب سيرته ، والقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر الذى كان امام كتابة المعاهدات فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون . وقد اشتهرت أسرة هذا الكاتب بالكتابة الرسمية أيضا للصلوح والمعاهدات ، فكانوا — كما يقول عنهم أحد المؤرخين — « بيت الفصاحة ، ورءوس أرباب البلاغة » .

مجالس توقيع المعاهدات

والمهـــادنات

لا بد لكتابة المهادنات والمعاهدات كما سبقت الاشارة من مفاوضات تسبقها ، ومحادثات بين رجال من الطرفين تتقدمها حتى تمهد لها الطريق ، وتذلل لها السبيل ، وتبلغها الى الصـــيغة النهائية التى ســـيتم القبول لها ، والتوقيع عليها . ولهذه المفاوضات التمهيدية حديث فى موضع آخر من هذا الكتاب .

ولكن مجالس كتابة المهـــادنات وتوقيعهـــا لا تخلو من حدوث بعض الأمور العجيبة ، والمناقشات الطارئة لساعتها ، وهى مسائل لا بد من الاشارة اليها هنا فى هذا الفصل ، ولا بد من تخصيصها بالحديث عنها ، لما فيها من طرافة أحيانا ، ولما تلقيه من أضواء على الظروف التى تحيط بكتابة المهادنات بعض الحين .

وأول ما يصادفنا من ذلك فى تاريخ المعاهدات الاسلامية ما وقع فى مجلس كتابة المهادنة بين المسلمين وبين قريش فى صلح الحديبية وقد تقدمت الاشارة اليه .

ويُروى هذا الصلح بروايات فيها شيء يسير من الخلاف في اللفظ ، وخاصة عند المؤرخين الذين لم يكونوا يتقيدون بالنصوص الأولى لروايات السير والمغازى ، بل كانوا يروونها بألفاظهم أو بألفاظ قريبة من النص الأصلى . ومهما يكن من أمر الاختلاف فى صيغ هذه الهدنة ، فلا شك أن مجلس كتابتها وتوقيعها كان عنيفا ، وكان مثيرا ، وكان مملوءا بتمثيليات مضحكة ومبكية من سهيل بن عمرو ، ممثل المشركين ، حتى لقد كانت اعتراضاته الشكلية والموضوعية تثير حفيظة رجال من المسلمين من امثال عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، اللذين ضاق صدرهما بهذه الحماقات . فهو يثير أولا اعتراضا شديدا على تلقيب النبى عليه السلام برسول الله ، وكأنه لا يريد أن يذكر ذلك فى المعاهدة ، حتى لا يكون ذلك اقرارا منه ومن قريش برسالة النبى . ويقول فى جراة غريبة : والله لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك (كما فى رواية أخرى غير رواية البخارى) .

وهو يثير قبل هذا اعتراضا شكليا على افتتاح الهدنة بعبارة : بسم الله الرحمن الرحيم . وكانت هذه من تعابير الاســلام الجديدة ، وأراد أن يضع مكانها عبارة : باسمك اللهم . وهى من عبارات ما قبل الاسلام .

وهو يثير بعد هذا اعتراضا موضوعيا على موعد البدء بتنفيذ هذه الهدنة ، فيجعلها من العام المقبل ، حتى لا يقول العرب ان قريشا قد أُخذت ضغطة . . .

وهو يثير بعد هذا اعتراضا — بل يصر اصرارا — على أن يبدأ بتطبيق نصوص الهدنة على أبى جندل الذى جاء من مكة هاربا مسلما يرسف فى قيوده التى قيده بها المشركون ، ويريد أن يسلّم أبو جندل الى قريش وأن يرد اليها ، مع أن الهدنة لم تكن قد وقعت بعد ! وحين ينبهه النبى عليه السلام الى هذا يصر على رد الرجل الى قريش ، ويتلطف النبى فى طلب هذا المسلم اللاجىء قائلا : أجزه لى ! فيرد سهيل بن عمرو فى قحة وجرأة : ما أنا بمجيزه لك . وينذهل اللاجىء المسلم أبو جندل لهذا الموقف الغريب المتعنت من المشركين أو من ممثلهم سهيل ، فيقول فى دهشة : أرد الى المشركين وقد جئت مسلما ؟ .

ويظهر التناقض الغريب فى موقف سهيل بن عمرو فى أثناء مجلس كتابة الهدنة ، فهو — حين يملى النبى الشرط الخاص باخلاء قريش البيت الحرام ليطوف المسلمون به — يعترض بأن يؤجل ذلك الى العام المقبل ، ولكنه فى موقف اللاجىء المسلم أبى جندل يرى أن يكون التنفيذ به من التو والساعة ، حتى ولو لم يكن قد تم بعد ذلك توقيع المهادنة !!

وقد حدث مثل هذا الخلاف وهذه المناقشات الشكلية فى المجلس الذى كتبت فيه المهادنة بين الامام على ومعاوية . فحين أخذ كاتب هذه الهدنة يكتب : هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علىّ ، اعترض عمرو بن العاص على هذا التلقيب قائلا وموجها خطابه الى فريق الامام على الحاضرين فى

المجلس : هو أميركم ! أما أميرنا فـــلا ! أى أنه لا يريد أن يعترف بهذه الامرة للمؤمنين من على فى وثيقة الهدنة .
وعلى الرغم من اعتراض بعض أصحاب على على هذا الرأى ، فانه ـ كرم الله وجهه ـ قد اضطر الى الاستجابة له وقبوله والرضا بمحو صفة الأمرة للمؤمنين من العهد .

وقد تذكّر الامام على فى هذا الموقف ما حدث له ومنه فى صلح الحديبية أيام كان كاتبا لهذا الصلح بيده ، ثم اعترض سهيل بن عمرو على صفة النبى برسول الله ، فغضب على ولم يرض أن يمحوها من الكتاب ، ولكن النبى عليه السلام اخذ وثيقة الهدنة من يده ومحا العبارة منها ، مجاراة ولباقة وكياسة مع الخصوم . نعم ! تذكّر الامام على هذا الموقف ، والشىء بالشىء يذكر ، فقال : (الله أكبر ، سنة بسنة ، والله انى لكاتب رسول الله صــلى الله عليه وســلم يوم الحديبية ! فكتبت : محمد رسول الله ، فقالوا للنبى : لست برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ـ يعنى محمد ابن عبد الله ـ فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت : لا أستطيع أن أفعل ! فقال : اذن أرنيه ! فأريته ، فمحاه بيده ، وقال : انك ســتدعى الى مثلها وتجيب) .

موقف عجيب يذكرنا بالمثل العربى القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة ؛ ونبوءة صادقة صحيحة من النبى الذى لا ينطق عن الهوى .

على أن أشد مجالس توقيع المهادنات الاسلامية العربية تأثيرا فى النفوس هو ما حدث فى أثناء توقيع وثيقة التسليم لمدينة غرناطة آخر عواصم المسلمين فى الأندلس سنة ٨٩٧ هـ . فقد اجتمع زعماء المسلمين فى البهو الكبير بقصر الحمراء الذى كان مقر الحكم لبنى الأحمر آخر ملوك العرب بذلك الفردوس الضائع ، وكان اجتماعهم لا ليفاوضوا أو يناقشوا أو ليكون لهم رأى فى املاء شروط التسليم ، فقد كانوا مجردين من كل رأى ، ومحرومين من كل حول . ولكنهم اجتمعوا ليكتبوا وثيقة تضييعهم لذلك الملك الاسلامى الكبير الذى لم يحافظوا عليه ، ولم يصونوه ؛ ولكى يوقعوا على تسليم بلدهم واسلامه الى عدوهم الذى كان واقفا لهم منذ الفتح العربى للأندلس ينتهز منهم خلة ضعف ، ويتربص بهم الدوائر . وكان الموقف مؤثرا ، والمشهد حزينا ، الى حد أن أكثرهم لم يملك نفسه من البكاء والعويل . الا ما كان من موسى بن أبى الغسان الذى كان أشدهم ـ منذ أزمة الحصار ـ بلاء على العدو ، وأكثرهم تحمسا لمقاومته وعدم التسليم له ، فقد وقف بين زعماء المسلمين فى خلال اشتداد الحصار على العاصمة الأندلسية يصدهم عن الموقف الذى ارتضوه بالتسليم ؛ واعترض عليهم بالأمس قائلا : (ان مواردنا لم تنضب بعد ، فما زال فى أيدينا مورد قوى كثيرا ما صنع المعجزات : ذلك هو اليأس الذى نحن فيه ، والأمل فى المخرج منه ،

فلنعمل على اثارة الشعب ، ولنمده بالسلاح ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة . وانه لخير لى أن أعد بين الذين ظفروا بالشهادة دفاعا عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين رضوا بتسليمها) .

ثم نراه اليوم فى مجلس كتابة شروط التسليم ، وقد ارتفع العويل والبكاء بين زعماء المسلمين فى بهو الحمراء ، فاذا به وهو يردد النظر فى دهشة وصمت وعبوس ، ثم يرتفع صوته داعيا ما بقى فى النفوس من بقية الى رفض التوقيع على الشروط ، والى مواصلة القتال ، ولو تفرقت اشلاؤهم فى العراء ، فاذا لم يظفر أحدهم بقبر يضم رفاته فلن يعدم سماء تغطيه ... ولكن صوته ذهب سدى ، وصيحته ضاعت بين أصوات الباكين المتخاذلين المصممين على التسليم بعد أن أنهكهم العدو ، وانفلت مغادرا بهو السباع بقصر الحمراء ، بل مغادرا القصر كله ، بل مغادرا غرناطة كلها ، حتى لا تشهد عيناه منظر أنامل زعماء المسلمين وهى توقع صك تسليم غرناطة ..

* * *

وقد يحدث فى خلال مجالس كتابة المهادنات والمصالحات مفاجآت لم تكن فى الحسبان ، ولكنها من وحى الساعة ، ومن ثمرات اللحظة ، فقد حدث فى أثناء صلح الحديبية أن النبى عليه السلام كان يملى كاتب الهدنة على بن أبى طالب ،

فحين بلغ الى هذه العبارة : « من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » تواثبت جماعة كبيرة من خزاعة ، وأعلنوا انضمامهم الى صفوف المسلمين قائلين : « نحن فى عقد محمد وعهده » ، وتواثبت بنو بكر واختاروا معسكر قريش قائلين : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

أطراف المعاهدات

والمهـــادنات

تقوم المعاهــدة أو المهادنة بين طرفين متخاصمين أو متفقين أو فى سبيل الاتفاق على صلح . والغالب أن كل طرف من الطرفين يمثله فى الوثيقة المكتوبة شخص واحد هو عادة نبى الأمة ــ كما فى معاهدات النبى عليه السلام مع المشركين واليهود والنصارى ، أو الخليفة ــ كالخلفاء الراشدين ومن بعــدهم ، أو الملك ، أو القائد الفاتح ، أو عامل الخليفة أو الوالى أو أى شخص يستمد سلطته من رئيس الدولة ورأسها .

وفى معاهــدات النبى ومصالحاته كلها التى رواها لنا التاريخ ، كان عليه السلام دائما هو ــ وحــده ــ الطرف الأول ، لم يشركه معــه غـــيره من المسلمين ، ولم تــكن مشاركاتهم معه فى العهود الا بمقدار أدوارهم فى كتابة العهد وفى الشهادة فيه .

وفى معاهدات القادة الفاتحين من العرب مع غيرهم من أهل البــلاد المفتوحة ، نرى أن الطرف العــربى المسلم فى المهادنة يمثله واحد فقط ، هو القائد الفاتح . فحذيفة بن اليمان هو الطرف الأول فى معاهــدة المسلمين مع أهـــل

ماه دينار ببلاد الفرس ، ونعيم بن مقرن هو وحده الطرف الأول فى معاهدة العرب المسلمين مع أهل الرى ، وسويد بن مقرن هو وحده الطرف العربى الأول فى معاهدة المسلمين مع أهل جرجان ، وفى معاهدته الأخرى مع أهل طبرستان . وحبيب بن مسلمة هو الطرف العربى الأول وحده فى معاهدته مع أهل الديبل فى أرمينيا ، ومعاهدته الأخرى مع أهل تفليس . وخالد بن الوليد هو وحده الطرف الأول فى معاهدة المسلمين مع أهل دمشق الشام فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة . وأبو عبيدة بن الجراح هو الطرف العربى فى مصالحته مع أهل دمشق حين دخلها . وعمر بن الخطاب هو وحده الطرف العربى الأول فى معاهدته مع أهل بيت المقدس سنة ١٥ من الهجرة ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح هو وحده الطرف العربى الأول فى معاهدته مع أهل النوبة .

وقد يكون أحد الأطراف فى المهادنات أكثر من شخص واحد ، كما قد يكون قوما بأجمعهم ، أو شعبا بأسرهم ، أو أهل بلد بأكملهم . ففى معاهدة النبى عليه السلام مع أهل « مقنا » كان الطرف الثانى فيها « بنو جنبة وأهل مقنا » . وفى معاهدته مع نصارى نجران كان الطرف الثانى فيها «أهل نجران» بدون ذكر شخص يمثلهم فى وثيقة المعاهدة ، وكذلك فى تجديد أبى بكر رضى الله عنه لهذه المعاهدة ، فقد كان الطرف الثانى فيها « أهل نجران » . وفى معاهدة

حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار بالفرس نرى أن الطرف الثانى فى المعاهدة هم « أهل ماه دينار » بدون شخص يمثلهم فى المهادنة . وفى معاهدة عتبة بن فرقد ـ عامل عمر ابن الخطاب ـ نرى الطرف الثانى فى المعاهدة هم « أهل أذربيجان : سهلها ، وجبلها ، وحواشيها وشفارها ، وأهل مللها كلهم » .

وفى المعاهدة ـ أو المهادنة ـ التى تمت بين الملك الظاهر بيبرس المملوكى المصرى وبين الفرنجة بالشام ـ أى الصليبيين ، سنة ٦٦٩ هـ نرى أن الطرف الأول الذى يمثل المسلمين فى الهدنة هو الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد ـ فهنا اثنان يمثلان طرفا واحدا . أما الطرف الثانى الذى يمثل الصليبيين الأسبتاريين فهو : « المقدم الجليل افريز أولدكال ، مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وجميع الاخوة الأسبتارية » ـ فهنا فى الطرف الثانى أكثر من شخصين .

وفى الهدنة التى عقدت بين المنصور قلاوون المملوكى المصرى وبين الفرنجة من أصحاب عكا وسواحل بلاد الشام سنة ٦٨٢ هـ ، نرى الطرف الأول ، الذى يمثل المسلمين ، شخصين اثنين هما : السلطان المنصور قلاوون ، وولده الملك الصالح على . والطرف الثانى الذى يمثل نصارى الفرنجة هم : (مقدم مملكة النصارى بعكا ، ومقدم بيت الديوية ، ومقدم بيت الاسبتارية ، ونائب مقدم بيت

الاسبتار) فهم هنا أربعة أشخاص بأزاء شخصين اثنين فى طرف المسلمين .

وفى المهادنة التى عقدت سنة ٦٩٢ هـ بين مصر وبين حاكم أرغونة وبرشلونة وأميرهما بالأندلس ، كان الطرف الأول الذى يمثل المصريين الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، أما الطرف الثانى الذى يمثل دولة برشلونة فقد كان يمثله الدون حاكم أرغونة ، وأخواه : الدون لوذريك ، والدون بيدرو ، وصهراه : الدون شانجه ، والملك أتفونش ملك البرتغال . فهنا خمسة أشخاص فى الطرف الثانى ، بازاء شخص واحد فى الطرف الأول .

وقد يكون أحد الأطراف فى المهادنات العربية الاسلامية شخصا واحدا فقط ، والطرف الثانى شخصا واحدا مع أهل بلد أو بلاد مختلفة . كما فى معاهدة نعيم بن مقرن فى الفتوحات العربية الاسلامية الأولى فى بلاد فارس ، فقد كان نعيم وحده هو الطرف الذى يمثل العرب المسلمين ، وكان الطرف الثانى الذى يمثل أهل اقليم دنباوند يتكون من مردان شاه مصمغان دنباوند ، وأهل دنباوند ، والخوار ، واللارز ، والشرز .

ونجد بعض النساء أطرافا فى بعض المعاهدات الاسلامية التى كان يعقدها المسلمون مع غير المسلمين ، وذلك على ندرة نادرة ، حينما لا يكون هناك مفر من أن تمثل الطرف

الآخر ملكة أو امرأة غير مسلمة . فلقد عقد السلطان الملك الظاهر بيبرس المملوكى المصرى فى سنة ٦٦٧ هـ هدنة مع « ملكة بيروت من البلاد الشامية حين كانت بيدها » .

وملكة بيروت هذه التى عقد معها الظاهر بيبرس الهدنة هى من الصليبيين ، فقد كانت بيروت اسلامية منذ فتح الشام . ولكن الصليبيين استولوا عليها بقيادة بلدوين الأول صاحب بيت المقدس سنة ٥٠٣ هـ ـ ١١١٠ م ، واستعادها صلاح الدين الأيوبى ، ولكنها سقطت ثانية فى أيدى الصليبيين وظلت فى حوزتهم حتى سنة ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١ م. وقد تزوجت أميرة بيروت الصليبية هذه ـ بعد وفاة والدها صاحب بيروت ـ بملك قبرس . وكان الأمير آقوش نائب الظاهر بيبرس فى بلاد الشام مهتما بخبر هذا الزواج [1] الذى كان يحمل بالطبع تكتلا صليبيا جديدا ضد المسلمين ، وقد شكر نجم الدين محمد بن حجى ـ من أمراء بنى بحتر فى بيروت ـ على اخباره بنبأ هذا الزواج السياسى العسكرى ، حتى يكون المعسكر الاسلامى المصرى على بينة منه .

ولم ينس كاتب هذه الهدنة أن يخلع على ملكة بيروت الصليبية حفنة من ألفاظ التكريم والتفخيم ، على

---

(١) تاريخ بيروت ـ لصالح بن يحيى . نشر الأب شيخو ـ بيروت سنة ١٩٢٧

ما جرت به العادة فى العصور الاسلامية المتأخرة ، من مثل وصفها « بالملكة الجليلة المصونة الفاخرة » . وسنوفى موضوع التفخيم والتبجيل فى كتابة المهادنات حقه فى فصل آخر من هذا الكتاب .

والمهادنات العربية الاسلامية قد وقع جلها بين جانب مسلم من طرف ، وجانب غير مسلم من طرف آخر ، كالمعاهدة بين النبى وقريش المشركين ، وبين اليهود ، وبين النصارى من أهل نجران وغيرهم . وكبقية المهادنات والصلوح التى كان العرب المسلمون الفاتحون فيها طرفا ، وغير المسلمين طرفا آخر ، وكالهدن بين ملوك المسلمين من ناحية ، وملوك غيرهم من ناحية أخرى . كتلك الهدن بين صلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل وغيرهم .

وقد يقع اتفاق ومهادنة بين طرفين مسلمين ، كالذى حدث بين على ومعاوية ، وتوافقهما على أن يقيما حكمين بينهما ، وأن يصنعا فى ذلك كتابا هو عقد الاتفاق أو وثيقة المهادنة بين الطرفين . وهو وضع غريب أدى اليه غرابة ما حدث من اختلاف بين المسلمين ، وما قام من فتنة بينهم فى العهود الأولى للاسلام ، القريبة جدا من عهد النبى عليه السلام . فالمفروض أن لا يحارب المسلمون بعضهم بعضا ، فان فى ذلك تخذيلا وايهانا وتصديعا للشمل الاسلامى الذى

يجب تكامله والتئامه . ولكن حدث أن تحارب المسلمون وانقسموا الى معسكرين : معسكرين مع الامام على ، ومعسكر مع معاوية ، فلما أذن الله للنفوس الثائرة ، والرماح المشتجرة أن تهدأ بعض الوقت ، كان لا بد من اتفاق مهادنة بين الطرفين المسلمين ... وقد عقدت هذه الهدنة الأولى من نوعها فى الاسلام سنة سبع وثلاثين من الهجرة . وكان الطرفان فيها « على بن أبى طالب وشيعته » و « معاوية ابن أبى سفيان وشيعته » . وكانت نصوص هذه المصالحة والمهادنة سبع عشرة مادة .

ولا بأس أن نفرد هذه الاتفاقية الخاصة بذكر نصوصها كاملة ، بالنسبة لأهميتها البالغة فى تاريخ المهادنات فى الاسلام ، وبالنسبة لوضعها فى الصف الاسلامى الواحد . وتبدأ هكذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » :

(١) هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

(٢) قضية على على أهل العراق شاهدهم وغائبهم ، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم .

(٣) انا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته الى خاتمته : نحيى ما أحيى ، ونميت ما أمات . على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا .

(٤) وان عليا وشيعته رضوا بعبدا الله بن قيس [١] ناظرا وحاكما [٢] ، ورضى معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظرا ، وحاكما .

(٥) على أن عليا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، أن يتخذا القرآن اماما ، ولا يعدوا به الى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجدا فى الكتاب رداه الى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يبنيان فيها بشبهة .

(٦) وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على على ومعاوية ، عهد الله وميثاقه ، بالرضا بما حكما به ، مما فى كتاب الله وسنة نبيه . وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه الى غيره .

(٧) وهما آمنان فى حكومتهما على دمائهما وأموالهما ، وأشعارهما وأبشارهما ، وأهاليهما وأولادهما لم يَعْدوا الحق ، رضى به راض ، أو سخط ساخط . وان الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما فى كتاب الله .

---

(١) عبد الله بن قيس هو : أبو موسى الأشعرى ، وكان صحابيا جليلا ، فارسا ، شجاعا . شارك فى فتوحات اسلامية . وكان من أحسن الناس صوتا فى تلاوة القرآن .

(٢) فى بعض الروايات : ومحاكما .

(٨) فان توفى أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة ، فلشيعته وانصاره أن يختاروا مكانه رجلا من أهل المعدلة والصلاح ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق .

(٩) وان مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود فى هذه القضية ، فلشيعته أن يولوا مكانه رجلا يرضون عدله .

(١٠) وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

(١١) وقد وجبت القضية على ما سمينا فى هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين . والله أقرب شهيدا وكفى به شهيدا . فان خالفا وتعديا ، فالأمة بريئة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة .

(١٢) والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم وأموالهم الى انقضاء الأجل ، والسلاح موضوعة ، والسبل آمنة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد فى الأمر .

(١٣) والحكمين أن ينزلا منزلا متوسطا عدلا بين أهل العراق والشام .

(١٤) ولا يحضرهما فيه الا من أحبّا ، عن تراض منهما .

(١٥) والأجل الى انقضاء شهر رمضان ، فان رأى

الحكمان تعجيل الحكومة عجلاها ، وان رأيا تأخيرها الى آخر الأجل أخراها .

(١٦) فان هما لم يحكما بما فى كتاب الله وسنة نبيه الى انقضاء الأجل ، فالفريقان على أمرهم الأول فى الحرب .

(١٧) وعلى الأمة عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر . وهم جميعا يد واحدة على من أراد فى هذا الأمر الحادا أو ظلما ، أو خلافا .

ثم ختم هذا العقد الاتفاقى بأسماء الشهود من الفريقين وتاريخ كتابته . وكان بعد هذه الوثيقة أو المهادنة ما كان من خروج الخوارج على الفريقين ، قائلين انه لا حكم الا لله ، ومن مبايعة أهل الشام لمعاوية ، ومن مقتـل على بن أبى طالب ، ومن انتقال الخلافة الراشدة الى الدولة الأموية ، مما ليس هنا مجال تفصيله . . .

وقد تنبه علماء الاسلام وفقهاؤه الى قيام حالة الحرب بين المسلمين بسبب ما كان من الحرب بين على ومعاوية . فاستبعدوا أن تكون مهادنة بين مسلم ومسلم ، لأنه ليس هناك محل للهدنة ما دام هناك ليس محل للحرب بين المسلمين بعضهم بعضا . وأجازوا قيام « التعاقد » بين عظماء أهل الاسلام على التوادع والتسالم ، واعتقاد المودة والتصافى ، والتآزر والتعاون ، والتعاضد والتناصر . وقد فصل صاحب كتاب « موارد البيان » ــ وهو على بن عبد الوهاب ابن خلف الكاتب ومن رجال القرن الثامن الهجرى ــ

الكلام على « التعاقد » بين المسلمين ، وأجاز أن يشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما فى يده ، والتفادى عنه بمعاطفته والانقياد الى أتباعه ، والطاعة والاحترام فى المخاطبة ، والمجاملة فى المعاملة ، والامداد بجيش ، أو امتثال الأوامر والنواهى وغيرها .

تحرير المهادنات والعهود

كانت العهود والمهادنات فى أول أمر المسلمين بسيطة فى لغتها وتعبيراتها ، ورسوم كتابتها . وكانت تحتوى على الشروط المشروطة فى ايجاز ودقة . ولم يكن فيها ما جد بعد ذلك فى الكتابات المتأخرة من تأنق فى صوغ العبارات ، وتكلف فى الأساليب ، وتحلية فى البيان ، وزخرف فى القول .

ومعاهدات النبى عليه السلام ومهادناته ، ومهادنات المسلمين بعد ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى شاهد على ذلك .

وتطورت أساليب الكتابة بعد ذلك ، وامتد هذا التطور حتى وصل الى لغة المهادنات والمعاهدات ، فأصبحنا نجد فيها بعدا عن البساطة التى كانت أهم مميزاتها ، وقربا من التكلف ، وميلا الى الصنعة ، حتى بلغت فى العصر المملوكى حدا من التأنق والتزيين ، ووضعت لها رسوم وشروط وقيود ، وقعّدت لها القواعد فى ابتداءاتها وختاماتها ومقدماتها والتحفظ فيها والحلف عليها ، والشهادة لها ، وتحرير التاريخ فيها .

وكان للكتّاب فى ذلك كله مذاهب ومدارس ، فهناك مدرسة القاضى الفاضل ، ومدرسة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، ومدرسة القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ومدرسة على بن خلف بن عبد الوهاب وغيرهم . وهى مدارس كان كتاب الدواوين يتأثرون بها وينتمون اليها ، ويقلدونها ، ويكتبون على مثلها .

واذا كنا نجد هدنة كصلح الحديبية مثلا ، أو صلح فتح مصر ، أو صلح خالد بن الوليد مع أهل الشام ، أو صلح عمر بن الخطاب مع أهل القدس لا يتجاوز مقداره فى الطول الا بضعة سطور ، ولا يتجاوز فى مواد الصلح وشروطه الا بضعة ، فاننا نجد الهدنة التى عقدها المنصور قلاوون مع الفرنجة من أصحاب عكا تبلغ اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير ، وتقترب سطورها من مائتين وخمسين سطرا ، وتبلغ موادها أو شروطها العشرات . وتبلغ الهدنة التى عقدت بين الظاهر بيبرس المملوكى المصرى وبين الفرنج الأسبتارية تسع صفحات من القطع الكبير ، وتقترب سطورها من المائتين ، وتبلغ موادها قريبا من العشرين مادة .

وقد وضع شيوخ الكتاب فى العصرين الأيوبى والمملوكى شروطا لكتابة المهادنات والعقود وتحريرها .

فاشترطوا فى عاقد الهدنة من الطرف العربى المسلم أن يكون الامام الأعظم ، أو نائبه المفوض اليه التحدث فى جميع

أمور الدولة ، أو الوالى تبعا لحالة المعقود عليه ان كان اقليما كالهند والروم ، أو كان على بعض المدن والأطراف .

واشترطوا فى عقد الهدنة أن يكون فيه مصلحة للمسلمين : بأن يكون فى المسلمين ضعف ، أو قلة فى المال ، أو توقع اسلام المهادنين بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع فى قبولهم الجزية من غير قتال ولا انفاق مال . فان لم تكن هناك مصلحة للمسلمين فلا يهادن الطرف الآخر ، بل يقاتلون حتى يسلموا ، أو يؤدوا الجزية ان كانوا من أهلها .

واشترطوا فى العقد كذلك أن لا يكون محتويا على شرط يأباه الاسلام ، كما اشترطوا فى مدة الهدنة أن لا تتجاوز بحال عشر سنين ، اقتداء بما فعله الرسول عليه السلام ، فقد هادن أهل مكة عشر سنين ، كما جاء فى « سنن أبى داود » .

وتحدث شيوخ الكتاب الديوانيين فى الشروط التى يقع الاتفاق عليها والاشتراط لها فى الهدن والمصالحات ، وحاولوا أن يحددوها بحدود تحصرها فى أضيق نطاق ، وان كانوا قد تركوا الاطالة فى التحديد تبعا لما تمليه ضرورات الواقع ، ومناسبات الحال . فمما حددوه من الشروط العامة أن يشترط عليه أن يكون لوليه مواليا ، ولعدوه معاديا ، وأن لا يواطىء عليه عدوا ، وأن يكف عن بلاده وأعماله ، ومتطرف ثغوره ، وشاسع نواحيه ، أيدى

الداخلين فى جماعته ، والمنضمين الى حوزته ، ولا يجهز لها جيشا ، ولا يحاول لها غزوا ، وأن يشترط عليه أن يفرج عمن هو فى حوزته ممن وقع فى الأسر ، ويمكنهم من العودة الى بلادهم بأنفسهم وخدمهم وعيالهم وأموالهم ، فى حراسة تامة ، وخفارة كاملة ، دون كلفة عليهم ولا مئونة تلحقهم . وأن يشترط عليه مالا يحمله اليه فى كل سنة ، أو أن يسلم اليه ما يختاره من حصون وقلاع وثغور وأطراف مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين ، أو أراد انتزاعه أو استضافته من بلاد الطرف الآخر ، وأن يُبقى من فيها من أهلها ، ويقررهم فيها بحرمهم وأولادهم وماشيتهم وسلاحهم وآلاتهم ، دون أن يلتمس لذلك بدلا أو مقابلا . وأن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكتيه ، والمسافرين من رعيته – برا وبحرا – بأى نوع من أنواع الأذية والاضرار ، سواء أكان أذى فى النفس أو المال ، وأن يشترط عليه أنه اذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطرفين المتهادنين وهو فى بلاد الآخرين ، أن يكون له الأمن حتى يبلغ مأمنه .

وقد اشترط بعض الذين تعرضوا لكتابة الهدن والمعاهدات أن يكون الورق من نوع خاص ، وأن يختلف قطعه تبعا للملك أو الأمير الذى تكتب الهدنة معه ، فهناك قطع العادة ، أو قطع الثلث ، أو قطع النصف .

ويلاحظ فى ابتداءات الهدن والمصالحات الأولى فى

الاسلام أنها كانت تفتتح باسم الله ، ويليها هـذه العبارة التالية : هذا ما صالح عليه فلان فلانا . أو هذا ما كتبه فلان لفلان ، أو لأهل كذا . أو هذا كتاب من فلان لأهل اقليم كذا . أو هذا كتاب أمان لفلان . أو هذا ما أعطى فلان أهل اقليم كذا من الأمان .

ولكن كتّاب الهدن والمصالحات والمعاهدات منذ العصر الأيوبى والمملوكى أخذوا يطيلون فى الابتداءات وبراعات الاستهلال بذكر تحسين موقع الصلح ويمن عاقبته ، وتوكيد أسباب المودة بين الطرفين المتعاقدين ، وذلك كله يأتى بعد التحميد فى الهدن التى يرى الكتاب فيها الافتتاح بحمد الله . . .

ويأتى بعد التصدير والافتتاح مقدمة يذكر فيها الكاتب السبب الذى أوجب الهدنة ، ودعا الى قبول الموادعة ، فان كان الطرف الآخر غير مسلم احتج كاتب الهدنة فى وجوبها بالائتمار بأمر القرآن والانقياد اليه ، حيث أمر الله ورسوله الكريم بالاجابة الى الصلح والجنوح الى السلم فى قوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . وان كان الصلح بين طرفين مسلمين احتج كاتب الهدنة بقوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . كما يحتج بالأحاديث النبوية الشريفة التى تحذر المسلمين من مقاتلة بعضهم بعضا . . .

ومما يؤكد بساطة المهادنات الاسلامية الأولى ذكر

العاقدين أو الطرفين المتعاقدين المثلين للجانبين ، بأسمائهما المجردة من غير حاجة الى تلقيب أو تفخيم أو تعظيم . فيذكر اسم محمد بن عبد الله ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وحبيب بن مسلمة ، وسويد بن مقرّن مجردا من أى لقب أو صفة أو ما يشعر بالأمارة والجاه . حتى رأينا فى صلح الحديبية أنه حينما أملى النبى على بن ابى طالب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » اعترض سهيل بن عمرو ، ممثل قريش فى كتابة الصلح على هذه الصفة قائلا : لو كنت أشهد أنك رسول الله لم أقاتلك ...

وكان اسم النبى عليه السلام يأتى فى سطور الصلح هكذا « محمد » من غير تفخيم أو تعظيم . فيقول صلح الحديبية مثلا : من أتى محمدا من قريش . أو : من أحب ان يدخل فى عقد محمد ...

ومال المسلمون بعد ذلك بقرون الى التفخيم فى لغة المهادنات ، بل جعلوها شرطا مهما يجب على كتاب الخلفاء والسلاطين والدواوين أن يراعوه ولا يغفلوه . ونرى صاحب كتاب « صبح الأعشى » يقول فى هذا المعرض : (ومنها أن يراعى المقام فى تبجيل المتهادنين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال ، ووصف كل واحد منهما بما يليق به من التعظيم ، أو التوسط ، أو انحطاط الرتبة

بحسب المقام . ويجرى على حسب ذلك فى الشدة واللين) .

وتتسم كل المهادنات الأيوبية والمملوكية تقريبا بطابع تفخيم المتهادنين ، حتى لقد غالى بعضها فى ذلك غلوا كبيرا . ففى الهدنة بين الظاهر بيبرس البندقدارى وبين الأسبتار زعيم طائفة الأسبتارية من الفرنجة نرى التفخيم يجرى هكذا : (استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح بيبرس الصالحى النجمى ، وبين المقدم الكبير الهمام فلان . . .) . وفى الهدنة بين الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت يجرى التفخيم لهذه الملكة الفرنجية هكذا : (استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجليلة ، المصونة الفاخرة . . .)

ويزداد التفخيم ، وتزداد ألقاب التبجيل مع الزمن فى عهد الملك الأشرف خليل قلاوون سنة ٦٩٢ هـ حيث عقد معاهدة مع ملك أرغونة وصاحب برشلونة ببلاد الأندلس ، فنرى ألفاظ التبجيل تجرى هكذا فى تلك المعاهدة : (استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل ، الدون حاكم أرغون . . .)

ويلاحظ أن الطرف الكاتب للهدنة أو المعاهدة يتواضع دائما ويقتصد كثيرا جدا فى اضفاء الصفات والألقاب على

نفسه ، ثم يخلعها فى مبالغة وسخاء وافراط على الطرف الآخر فى الهدنة .

ومن طريف ما صادفناه من غرائب المهادنات الاسلامية أنه حينما يخلع طرف على الطرف الآخر ألقاب التفخيم والتبجيل تأدبا ومجاملة ومصانعة ، فان هذا الطرف الآخر يتمسك بهذه الألقاب ويخلعها على نفسه ، ويضفيها على ذاته ... فتأتى غثة باردة . وقد وقع مثل هذا فى الهدن بين صاحب القسطنطينية وبين المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٠ هـ . فقد أراد صاحب القسطنطينية وملكها أن يخلع التفخيم على المنصور قلاوون بقوله فى هدنة بعث بها اليه وعربت ، وكان تعريبها كما ذكره ابن مكرم فى « تذكرته » : (اذ قد أراد السلطان العظيم ، النسيب ، العالى ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكون بينه وبين مملكتى محبة ، فمملكتى تؤثر ذلك ، وتختار أن يكون بينها وبين « عز سلطانه » محبة ...) وأخذ ملك القسطنطينية يكرر عبارة « عز سلطانه » ويخلعها على قلاوون فى طول الهدنة كلها ، فلما كتب كاتب المنصور قلاوون نسخة الاتفاق على هذه الهدنة استعمل عبارة « عز سلطانه » على لسان قلاوون قائلا مثلا : (وحضر رسولاه الى عز سلطانى ! (فعز سلطانى من هذا اليوم ...) (ولا يحرك عز سلطانى

أبدا على مملكته حربا) . (ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ...) (وان الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني) ... وهكذا ملأ الملك المنصور قلاوون هدنته بالحديث عن عز سلطانه ! وضنّ على الملك ميخائيل باليولوجوس صاحب القسطنطينية وامبراطور الروم ـ وهو خالع « عز السلطان » عليه ـ بصفة تبجيل ، أكثر من قوله فى الهدنة : الملك الجليل ..

وقد راعى شيوخ كتابة الهدن فى الاسلام أن يكون التحفظ فى الكلام شرطا مما يلزم الكاتب أن يتنبه اليه ويحافظ عليه . فيتحفظ مثلا ـ مِنْ سَقَطٍ يُدخل على الشريعة نقيصة ، ان كانت المعاهدة أو المهادنة مع غير مسلم . أو يتحفظ من غلط يجر الى أميره نقصا أو غرما ان كانت بين طرفين مسلمين . كما يحذر أشد الحذر من كل خلل فى وثيقة الصلح أو الهدنة ، كاهمال شيء من الشروط ، أو ذكر شرط فيه ضرر على الاسلام أو ضرر على السلطان ، أو ذكر لفظ مشترك ، أو كلام مشتبه ، أو معنى ملتبس يوقع فى الغموض ، ويفضى الى الابهام ، ويوجب السبيل الى كثرة التأويلات ، واختلاف التفسيرات . وأن يأخذ فى مساق الكلام المأخذ الواضح ، ويسلك الطريق الصريح الذى لا تتوجه عليه معارضة ، ولا تتطرق اليه مناقضة ، ولا يدخله تأويل ، ولا يتسرب اليه احتمال ...

أما التحليف فى المهادنات والمعاهدات فيأتى على سبيل توكيد العهد بالايمان . ولم يلاحظ فى المهادنات الاسلامية الأولى أنها كانت تشتمل على الأقسام والحلف . وليس فى الصيغة الموثوق بها من « صلح الحديبية » شىء من هذا ، فقد كتبت الوثيقة وشهد عليها الشهود من الفريقين : قريش والمسلمين .

على أن بعض المعاهدات الاسلامية بعد ذلك — وفى العصور الأولى من الاسلام — لوحظ فيها بعض تعبيرات وصيغ خاصة تحمل معنى أخذ الذمة على الوفاء بالعهد ، والالتزام بالشرط . ففى معاهدة عمرو بن العاص مع أهل مصر نرى فيها هذه العبارة : « على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته ، وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين » .

وفى معاهدة خالد بن الوليد مع أهل دمشق الشام نرى فى آخرها هذه العبارة : « لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء والمؤمنين » .

ولكن توكيد الضمان بالتزام العهد وعدم النكث والاخلال بالشروط قد جاء بصيغة أشد فى معاهدة التحكيم بين الامام على ومعاوية ، حيث جاء فى أحد بنود الوثيقة هذه العبارة : « والله أقرب شهيد ، وكفى به شهيدا . فان خالفا وتعديا ، فالأمة بريئة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة » . كما جاء فى بند آخر من هذا العهد : « وعلى الأمة

عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر . وهم جميعا يد واحدة على من أراد فى هذا الأمر الحادا أو ظلما أو خلافا » .

ولعل المبالغة فى التحليف فى المعاهدات والمهادنات قد فشت فى دواوين الدولة الاسلامية بعد ما كان من استعمال الايمان المغلظة فى عهود البيعة للخلفاء ، وخاصة فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى . وتسربت هذه الأيمان واشد أنواع الحلف من عهود الخلافة الى عقود الهدن والمصالحات . والعهدان اللذان كتبهما الأمين والمأمون على نفسيهما أمام والدهما هارون الرشيد وبعثا الى الكعبة ليعلقا فيها توكيدا لهما ، خير شاهد على ما نقول . فقد كتب محمد الأمين فى آخر عهده : « وأعطيت هارون أمير المؤمنين وعبد الله بن هارون — يعنى المأمون — على ما شرطت لهما على نفسى من جميع ما سميت وكتبت فى كتابى هذا — عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتى ، وذمة آبائى وذمم المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين : من عهوده ومواثيقه ، والأيمان المؤكدة التى أمر الله عز وجل بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فان أنا نقضت شيئا مما شرطت لهارون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وسميت فى كتابى هذا ، أو حدثت نفسى أن أنقض شيئا مما أنا عليه أو غيرت أو بدلت ، أو حلت أو غدرت ، أو قبلت ذلك من أحد من

الناس ، صغيرا أو كبيرا برا أو فاجرا ، ذكرا أو انثى ، جماعة أو فرادى ــ فبرئت من الله عز وجل ، ومن ولايته ، ومن دينه ، ومن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله عز وجل يوم القيامة كافرا مشركا ، وكل امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها الى ثلاثين سنة طالق ثلاثا ، ألبتة ، طلاق الحرج ، وعلىّ المشى الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة : نذرا واجبا لله تعالى فى عنقى ، حافيا ، راجلا ، لا يقبل الله منى الا الوفاء بذلك . وكل مال هو لى اليوم ، أو أملكه الى ثلاثين سنة ، هدى بالغ الكعبة الحرام . وكل مملوك هو لى اليوم ، أو أملكه الى ثلاثين سنة ، أحرار لوجه الله عز وجل ... » .

وقد أخذ عبد الله المأمون فى عهده أيضا لأخيه الأمين ولوالده هارون الرشيد هذه المواثيق الغليظة ، والأيمان المؤكدة ، والحلف بالطلاق . ومما يذكر هنا استطرادا أن مسألة الحلف بالطلاق هذه التى جاءت فى عهدى الأمين والمأمون قد أثارت كثيرا من الخلاف والجدال بين فقهاء المسلمين حول طلاق المكره ، واضافة الطلاق الى الزوجة التى لم تكن وقت حدوث اليمين . وقد أفتى فقهاء العراق ــ طبعا ــ بأن طلاق المكره واقع ، كما أفتوا بأن الطلاق يلحق من يتزوجها الحالف ولو بعد ثلاثين سنة من وقوع اليمين ..

ومن هذا الحلف وهذه الأيمان المغلظة فى عهود البيعة ــ التى كانت بدعة فى أواخر عصر الأمويين وأوائل العباسيين ــ تسربت العدوى الى صيغ العهود والوثائق فى الصلوح

والمهادنات . ففى القرن الرابع الهجرى نرى صلحا يعقد بين الوزير الأمير أبى نصر سابور بن أزدشير ، وبين الشريفين أبى أحمد الحسين بن موسى ، وولده محمد أبى الحسن المعروف بالشريف الرضى . وكان هذا الصلح صلح مصاهرة ومناصرة . ونرى عبارات القسم والأيمان المؤكدة تجرى فيه هكذا : « ثم انا نقول ــ وكل واحد منا : طائعين مختارين غير مكرهين ولا مجبرين ، بعد تمام هذا العقد بيننا وبينك ، ولزومه لنا ولك ــ : والله الذى لا اله الا هو ، الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الضار النافع ، المطلع على السرائر ، المحيط بما فى الضمائر ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وحق محمد النبى ، وعلىّ الرضى ــ صلى الله عليهما وسلم ، وشرف ذكرهما ــ وسادتنا الأئمة الطيبين ، الطاهرين رحمة الله عليهم اجمعين . وحق القرآن العظيم ، وما أنزل فيه من تحليل وتحريم ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، لنفين لك يا سابور بن أزدشير بجميع ما تضمنه هذا الكتاب ... فان نحن أخللنا بذلك أو بشىء منه ، أو تأولنا فيه أو فى شىء منه ، أو أضمرنا خلاف ما نظهر ، أو أسررنا ضد مانعلن ، أو التمسنا طريقا الى نقضه ، أو سبيلا الى فسخه .. فالذى يفعل ذلك منا يوم يفعله أو يعتقده ، وحين يدخل فيه ويستجيزه ، برىء من الله جل ثناؤه . ومن نبوة رسوله محمد ، ومن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلى الله عليهما وسلم ، ومن

القرآن الحكيم العظيم ، ومن دين الله الصحيح القويم ، ولقى الله يوم العرض عليه ، والوقوف بين يديه ، وهو به — سبحانه — مشرك ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم مخالف ولأهل بيته معاد ، ولأعدائهم موال ، وعليه الحج الى بيت الله الحرام العتيق الذى بمكة : راجلا ، حافيا ، حاسرا . واماؤه عواتق ، ونساؤه طوالق ، طلاق الحرج والسنة ، لا رجعة فيه ولا مثنوية ، وأمواله — على اختلاف أصنافها — محرمة عليه ، وخارجة عن يديه ، وحبيسة فى سبيل الله . »

وفى عقد الصلح الذى كتب بين تيمورلنك الفاتح المسلم وبين السلطان فرج برقوق السلطان المملوكى سنة ٨٠٥هـ ، نرى صيغة حلف بالله معتدلة من « المقام القطبى تيمور كورتان » — أى تيمورلنك — وفيها يقول : (وحلف المقام القطبى على الموافاة والمصافاة ، واتحاد المملكتين ، واجراء الأمور على السداد ، وعمل مصالح العباد والبلاد) . والحمد لله الذى لم يجعل هذا الاتحاد يتم بين المصريين وبين الطاغية التترى المسلم تيمورلنك الذى صنع فى بلاد الشام الأهوال والأعاجيب ، ما بين تحريق وتدمير وتخريب ..

ولم يجد المسلمون حين يتعاقدون ويتهادنون فيما بينهم بأسا فى اخذ هذه الأيمان الغليظة عليهم ، فقد صارت مألوفة فى كتب معاهداتهم ومصالحاتهم فيما بينهم ،

ولكن غير المسلمين حين كانت تكتب لهم أمثال هذه الأيمان فى مشروعات الصلح والمهادنات ، كانوا يتحرجون منهـــا ابلغ الحرج ، ويرفضونها رفضا باتا ، لجريها على غير مألوفهم .

ويصادفنا فى هذا حادث طريف فى أيام حملة لويس التاسع على مصر . فقد كتب اتفاق تسليم دمياط ودفع الفدية عن أسرى الفــرنسيين ورحيـــل المعتدين عن مصر وأقره الطرفان : الطرف المصرى بزعامة عز الدين أيبك التركمانى ، والطرف الفرنسى بزعامة الملك لويس التاسع . ولكن ما كاد الطرفان يبلغان القَسَم على شروط التسليم والهدنة حتى ثارت مشكلة ... فقد حلف أمراء المماليك البحرية بأنهم يعاهدون الله على تنفيذ الشروط ، وأنهم اذا نقضوا عهدهم فيها صاروا آثمين حانثين ، تجب عليهم فريضة الحج نذرا لله تعالى واجبا فى أعناقهم ، وصارت نســاؤهم طوالق ، وخرجوا من الاسلام الى غــيره وبرئوا منه ... وكانت اليمين المعدة للملك لويس التاسع وفريقه أنه اذا نكث صار بريئا من المسيحية والمعمودية ، ومنكرا للمسيح والصليب والعذراء ، والحواريين والقديسين والقديسات ... ولكن الملك الفرنسى رفض الحلف بهذه الصيغة التى رآها خطيرة ، على الرغم من الحاح بعض المفاوضين الفرنسيين عليه بتأدية اليمين على خطورتها فى غير تردد ، اظهارا لحسن النيـــة ، وتدليلا على صدق الرغبة فى الوفاء .

ولم يقتنع الملك لويس التاسع بأن هذه اليمين لا وزر عليه فيها الا بعد أن أحضر له بطرق بيت المقدس ـ وهو شيخ قارب الثمانين ـ فأكد للملك الأسير العنيد أنه مادامت نيته صادقة ومنعقدة على الوفاء بشروط التسليم فلا ضرر عليه ولا اثم من أية صيغة لليمين مهما كانت . . . !

وهكذا حل اشكال كان السبب فيه المبالغة فى القسم والأيمان فى كتابة المهادنات والعهود . . .

احترام المسلمين

للعهود والمهادنات السابقة

يشهد تاريخ العرب والمسلمين المشرّف على مدى العصور بمبلغ احترامهم للمعاهدات السابقة ، والمهادنات الماضية ، فهم يحرصون على نصها وروحها ، ولا يحاولون من ناحيتهم أن ينقضوها ، الا اذا رأى الطرف الآخر تغييرها أو تعديلها .

وقد يخشى أحد الطرفين المتعاقدين أن الهدنة التى تمت فى عهد أمير أو سلطان سابق قد لا يكون الأمير الجديد حريصا على تنفيذها أو امضائها على وجهها الذى كانت عليه ، وترى هذا الطرف الخائف لا يسكن طائره ، ولا يهدأ باله الا حين ينال من الأمير الجديد توكيدا بالمحافظة على شروط المهادنة أو تجديدا لها .

وتصادفنا فى خلال التاريخ العربى الاسلامى بعض حوادث من هذا القبيل ، ظهر فيها حرص حكام العرب المسلمين على احترام ما أعطاه السابقون لهم من عهود ؛ فقد كان النبى عليه السلام قد كتب لنصارى نجران عهدا ، كما كتب لأبى الحارث بن علقمة أسقف نجران عهدا يقول فيه :

(من محمد النبى ، الى الأسقف أبى الحارث ، واساقفة نجران وكهنتهم ، ومن تبعهم ورهبانهم :

ان لهم ما تحت أيديهم ، من قليل وكثير من بيعهم ، وصلواتهم ، ورهبانيتهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يغير اسقف من اسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته . ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ، ولا شىء مما كانوا عليه . على ذلك جوار الله ورسوله أبدا ، مانصحوا واصطلحوا فيما عليهم ، غير مثقلين بظلم ولا ظالمين) .

فلما التحق عليه السلام بالرفيق الأعلى ، خشى أهل نجران ـ وهم من نصارى العرب فى شبه الجزيرة العربية ـ ان يكون تغيير الموقف فى خلافة الرسول يقتضى تغيرا فى موقف المسلمين من الهدنة معهم ، فأراد أبو بكر الصديق خليفة رسول الله أن يؤكد لهم العهد بالمهادنة ، وأن يجدد لهم العهد بالهدنة التى كان منحها الرسول اياهم ، فكتب الى أهل نجران عهدا يقول فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر ، خليفة محمد النبى رسول الله لأهل نجران :

أجارهم بجوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على أنفسهم ، وأرضهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، لا يحشرون ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ،

وفاء لهم لكل ما كتب لهم محمد النبى ، وعلى ما فى هـذه الصحيفة جـوار الله ، وذمة محمـد النبى أبدا . وعليهم النصح والصلاح فيما عليهم من الحق) .

وأشهد أبو بكر الصديق على هذا العهد : المستورد بن عمرو ـ أحد بنى القين ـ ، وعمرو مولى أبى بكر ، وراشد ابن حذيفة ، والمغيرة بن شعبة الذى جمع بين كتابة العقد وشهادته .

وأنت ترى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قد صرح فى هذا العهد المجدد ، بأنه كان على سبيل الوفاء بكل ما كتبه لهم النبى . وليس فى هذا أبلغ من المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق السابق عند المسلمين .

ولما رأى عمر بن الخطاب ـ حين تولى الخلافة بعـد أبى بكر ـ أن يُجلى نصارى نجـران عن ديارهم ، حتى لا يكون فى جزيرة العرب دينان ، لم يكن ذلك منه نقضـا لمعاهدة النبى لهم ، ولا مخالفة لتجديد أبى بكر العهد لهم ، بل كان ذلك يرجع (الى تكييف عام لسياسة الدولة اقتنع به عمر ، فنفذه فى حزم وعدل) كما يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .

ولقد ظهر عدل عمر بن الخطاب فى مسألة اجلاء النصارى عن نجران واضحا لا لبس فيه ، فقد كان العدل يقتضيه أن يعوضهم أرضا جديدة خارج جزيرة العـرب بدلا من ارضهم . ولهذا أمر عامله يعلى بن أمية أن يمسح أرض كل

من يجلى منهم ، وأن يخيرهم البلدان التى يودون الذهاب اليها والمقام فيها . وكان كتابه الى يعلى بن أمية فى ذلك مثلا رائعا للعدالة الاسلامية ، فقد قال فيه : « ايتهم ، ولا نفتنهم فى دينهم ، ثم أجل من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ، وامسح أرض كل من يجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان ، وأعلمهم انا نجليهم بأمر الله ورسوله ألا يترك بجزيرة العرب دينان . فليخرج من أقام على دينه منهم . ثم نعطيهم أرضا كأرضهم ، اقرارا لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من الريف » .

ولم يتركهم عمر بن الخطاب هملا بلا راع فى مخاطرات الاجلاء وصعوباته ومتاهاته ، ولم يشأ لعدالته المنقطعة النظير أن يأمر باجلائهم عن أرضهم بنجران ثم يدعهم لقساوة الظروف ، فقد كان يتعهدهم بالرعاية الدائمة الموصولة خلال فترة الاجلاء ، وقد كتب لهم عهدا أو معاهدة ـ والأولى أن نسميه عهدا لأن المعاهدة تكون بين طرفين ومنهما ، والعهد يكون من طرف واحد ـ أشهد عليه عثمان بن عفان ومعيقيبا ، وقال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمن بأمان الله ، لا يضره أحد من المسلمين ، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبى وأبو بكر .

أما بعد : فمن مروا به من أمراء الشام والعراق ،

فليوسعهم من حرث الأرض . فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله ، وعقبة لهم مكان أرضهم ، لا سبيل عليهم فيه لأحد ، ولا مغرم . أما بعد ! فمن حضرهم من رجل مسلم ، فلينصرهم على من ظلمهم ، فانهم أقوام لهم الذمة . وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا ، من بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا ، الا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم » .

فلما جاء عثمان بن عفان خليفة بعد عمر ، وكان عارفا بمسألتهم ، بل كان شاهدا على العهد الذى كتبه عمر لهم وقت اجلائهم كما سلف القول ، لم يشأ أن يتخلى عنهم ، أو يتحرر من قديم العهد لهم ، فكتب الى الوليد بن عقبة عامله بالعراق يقول له : (من عبد الله عثمان أمير المؤمنين ، الى الوليد بن عقبة :

سلام عليكم ، فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد : فان الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق ، أتونى فشكوا الى ، وأرونى شرط عمر لهم . وقد علمت ما أصابهم من المسلمين . وانى قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم ، تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه . وانى وفيت لهم بكل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن . فاستوص بهم خيرا ، فانهم أقوام لهم ذمة ، وكانت بينى وبينهم معرفة . وانظر صحيفة كان عمر

كتبها لهم ، فأوفهم ما فيها . واذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم . والسلام) .

أرأيت احتراما للعهود أكثر من هذا ؟ أرأيت أسلوبا تقطر منه الرعاية والعدل والرحمة وخشية الله مثل هذا الأسلوب ؟ فانه يقرر أنه وفى لهم بكل الأرض التى أعطاها عمر لهم تعويضا عن أرضهم باليمن ، وانه يوصى بهم خيرا لأنهم قوم لهم ذمة ، وعهد ، وكانت بينه وبينهم معرفة ، ثم يأمره بأن يطلع منهم على عهد عمر لهم الذى يحتفظون به ليوفى لهم بما فيه ، ثم يرده اليهم .

أرأيت معدلة وأمانة وصيانة أكثر من ذلك فيما سمعت به من عهود ؟

ولما تولى الخلافة على بن أبى طالب بعد عثمان بن عفان ــ رضى الله عنهما ــ خاف النجرانيون أن يكون قد بدا للخليفة الجديد شىء من أمرهم ، فجاء اليه وفد كبير منهم ، وأروه عهود النبى وأبى بكر وعمر لهم ، فجدد لهم عهدا ألزم فيه نفسه باحترام العهود السابقة قائلا : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين لأهل النجرانية : انكم أتيتمونى بكتاب من نبى الله ، فيه شرط لكم على أنفسكم وأموالكم ؛ وانى وفيت لكم بما كتب لكم محمد وأبو بكر وعمر ؛ فمن أتى عليهم من المسلمين فليف لهم . ولا يضاموا ، ولا يظلموا ، ولا ينتقص حق من حقوقهم) .

ارايت هذه التوكيدات المتوالية ، المرة بعد المرة ، فى كل عهد مجدد ، بأن لا يضاموا ، ولا يظلموا ، ولا ينتقص حق من حقوقهم ؟؟

وهناك مثل آخر يحضرنا للدلالة على مبلغ احترام المسلمين لما سبق أن أعطاه حكامهم من عهود . ففى خلال حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وبعد هزيمته فى دمياط ، وأسره وحبسه فى سجن بمدينة المنصورة ، كتب الصليبيون شروط الهدنة وموعد التسليم والجلاء عن الأراضى المصرية ، وقام بتقديمها الى السلطان توران شاه جماعة من كبارهم ، منهم بطرس كونت بريتانى ، ووليام كونت فلاندر ، وجاى كونت ابلين ، والمؤرخ جوانفيل ، وغيرهم من أشراف الفرنسيين وأمراء الصليبيين ، ولكن السلطان المعظم توران شاه لقى حتفه فى النيل جريحا ، حريقا ، غريقا . وكان قد أقر شروط الهدنة والتسليم ، اتفاقا ومفاوضة ، لا كتابة . فلما جاء بعده الأمير المعز أيبك التركمانى وقام معه الصليبيون بمفاوضات جديدة ، رأى أن لا يغير من الشروط السابقة شيئا . ولهذا انتهى الاتفاق نهائيا بين المعز أيبك والملك لويس التاسع على امضاء الشروط نفسها واجرائها على وجهها القديم ، احتراما لما سبق اعطاؤه من تصديق على يد السلطان توران شاه الصريع ...

ويسجل تاريخ العهود والمهادنات العربية الاسلامية

موقفا حميدا للمقوقس عظيم القبط فى مصر ابان الفتح العربى لها . فلقد احترم العهد الذى أعطاه للمسلمين ولم يشأ أن يتخلى عنه حين أمره هرقل ملك الروم بالتخلى عنه والتحلل منه . وكان المقوقس قد كتب الى قيصر ملك الروم كتابا يعلمه فيه بكل ما جرى فى مصر ، ويخبره بالعهد وشروط الصلح التى تمت بينه وبين العرب الفاتحين ، فلما اطلع هرقل على كتاب المقوقس لم يرتح اليه وكتب اليه يقبح رأيه ، ويتهمه بالضعف والعجز ، ويرد عليه كل ما فعل . ويقول بتلر الانجليزى ـ المؤرخ الحديث للفتح العربى لمصر ـ أن الامبراطور عجب من هذا الصلح ولم يدر ما الذى أدى بالمقوقس الى ذلك الاذعان للعرب والمسلمين ، وعزم على أن يدعوه ليحاسبه على كل ما كان منه فى مصر ...

وذكر بعض المؤرخين العرب طرفا من كتاب امبراطور الروم الى المقوقس عظيم القبط فى مصر بتقبيح رأيه فى الصلح مع المسلمين ، وبحضه على التنصل منه ، وفيه يقول : (انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فان كان القبط كرهوا القتال ، وأحبوا أداء الجزية الى العرب ، واختاروهم علينا ، فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف ، معهم العدة والقوة . والعرب وحالهم وضعفهم على قدر ما رأيت . فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون

أنت ومن معك من الروم فى حال القبط ، اذ لا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت ، أو تظفر عليهم ، فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم ، وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة ... فناهضهم القتال ! ولا يكون لك رأى غير ذلك ...)

ورد المقوقس على كتاب امبراطور الروم يقول : (والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا . ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا . وذلك أنهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة . يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ، ويتمنى أن لا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجرا عظيما ، فيمن قتلوا منا ... ويقولون انهم ان قتلوا أدخلوا الجنة ... وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ، ونحب الحياة ولذتها ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ؟ وكيف صبرنا معهم ؟ واعلموا معشر الروم – والله – أنى لا أخرج مما دخلت فيه ، وصالحت العرب عليه . وانى لأعلم أنكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى ، وتتمنون أن لو كنتم أطعتمونى ، وذلك أنى قد عاينت ورأيت وعرفت ، ما لم يعاين الملك ولم يره [1] ولم يعرفه ...)

---

(١) الفتوحات الاسلامية – لأحمد زينى دحلان – ج ١ ص ٥٥

وهكذا كان احترام المقوقس للعهد الذى عاهده للمسلمين ، وللصلح الذى رضى به وقبل شروطه . فلم يبح لنفسه ان يتخلى عنه أو ينتكث منه ؛ بل قال فى صراحة لأمبراطور الروم ولأهل الروم : اعلموا — معشر الروم — والله ! انى لا أخرج مما دخلت فيه ، وصالحت العرب عليه .

وهذا النموذج من احترام العهود من رجل غير مسلم والاصرار على التنفيذ ، جدير فى هذا المعرض بأن يشار اليه ، ويدل عليه ...

نقض عهود الصلح وفسخها

كان صلح الحديبيــة أول مهادنة للصلح فى التــاريخ العربى الاســلامى . وقد لابستها ظـروف كثيرة ، وكان السبب فى الانتهاء اليها هو ما قام به النبى عليه السلام من استنفار غير المسلمين من العرب للخروج معه الى مكة ، بعد أن أذن فى الناس بالحج ، وما كان من خوف قريش مس هذا الخروج الذى حسبوه حيلة من محمد أراد أن يحتال، بها على دخول مكة ، بعد أن صدهم وصد الأحزاب معهم عن دخول المدينة . رما كان النبى يريد حربا بهذا الخروج السلمى ، بل كان يريد زيارة البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

ولقد انتهت الأحداث والمفاوضات فى هذا الموقف الى صلح الحديبية الذى عقد فى السنة السادسة من الهجرة كما بينا فى موضع آخر . وكان هــذا الصلح فتحا مبينا للمسلمين ، فقد كان فيه اعتراف من قريش بمحمد ، وبكيانه الذى وضــع فى كفة الميزان مع كيــان قريش ، وبالدولة الاسلامية وقيامها . وعلى الرغم من اعتراض مندوب قريش فى كتابة الصلح على أن محمدا رسول الله ، فقد كان فى الصلح

نفسه وفى روحه وفحواه اعتراف من قريش بالاسلام دينا معترفا به من أديان شبه الجزيرة العربية .

وقد كان يمكن أن يمضى هذا الصلح الهام على وجهه وعلى مدته ــ سنتين أو عشرا ، على اختلاف الأقوال ــ لولا أن قريشا نقضت هذا العهد أو ساعدت على نقضه بسبب ما قام بين خزاعة وبنى بكر من قتال ، وكانت خزاعة داخلة فى عقد محمد وعهده ، وبكر فى عهد قريش ، بمقتضى صلح الحديبية . وكان نقض قريش لصلح الحديبية ــ وهو لا يزال ندى المداد ــ دليلا على سوء نيتها نحو محمد والمسلمين ، وان كان النقض قد حدث بطيش جماعة من سادات قريش وشبانهم . ولقد خافت الحكماء من قريش مغبة ما فعله سفهاؤها ، وأوفدوا أبا سفيان الى المدينة ليصلح ما فسد ، وليثبت صلح الحديبية ، ويزيد فى مدته . ولكن طبيعة الأمور قضت أن يتجهز المسلمون لفتح مكة ، ردا على ما كان من مهزلة نقض الصلح . وفتحت مكة وكان فتحها نصرا مؤزرا للاسلام .

وهكذا كان نقض صلح الحديبية سببا الى ايذان المشركين بالحرب التى أدت الى الفتح المبين .. وكذلك كان المسلمون دائما مع الذين ينقضون عهودهم معهم : يعاودون قتالهم حتى يقضى الله فيهم أمره . فليس من جزاء عادل لناقض العهود الا معاودة قتاله حتى يثوب .

ولقد انتقضت افريقية بعد فتح العرب الأول لها ،

فسير معاوية بن أبى سفيان اليها معاوية بن خديج السكونى ، فوصل اليها وهى نار تضطرم ، ولقى بجيشه جيش الروم وعلى رأسه البطريق الذى نقض العهد ، فانهزم الروم ، وملك المسلمون حصن جلولا وغنموا ما فيه ، وسكن الناس وأعيد فتح افريقية ثانية .

وكان الفاتحون المسلمون يلقون الانتقاض ونكث العهود خلال فتوحاتهم فى امبراطوريتى الفرس والروم . فقد نقض أهل فارس الصلح فى سنة ٢٩ فسار اليهم عبيد الله ابن معمر ، ولما قتل حل محله عبد الله بن عامر الذى جاء من البصرة مسرعا الى فارس بعد ما سمعه من أنباء انتقاضاتها .

وفى سنة ٣٢ من الهجرة نقض أهل جزيرة قبرس العهد الذى أخذه المسلمون عليهم حين فتحوا الجزيرة سنة ٢٨ هـ . وكان نقض القبارسة لهدنتهم مع العرب غريبا ، فقد أعانوا الروم على الغزو فى البحر المتوسط ـ بحر الروم أو البحر الأبيض ـ بمراكب لهم أعطوهم اياها ، ولما كان هذا العمل يعد مجانبا لشروط الصلح التى عقدوها مع المسلمين ، فقد رأى معاوية بن أبى سفيان وجوب قتالهم ، فغزاهم وفتح الجزيرة عنوة سنة ٣٣ ، وقتل منهم خلقا ، وسبى آخرين ، ثم أقرهم على صلحهم .

ولم تكن هذه آخر مرة ينقض فيها أهل قبرس عهودهم مع المسلمين ، ففى عهد الخليفة العباسى : هارون الرشيد

نقضوا الصلح ، ونكثوا العهد بينهم وبين العرب ، فأرسل اليهم هارون الرشيد حميد بن معيوف أحد قواده على سواحل مصر والشام ، فبلغ جزيرتهم ، وهدم فيها وأحرق، وسبى من أهلها سبعة عشر الفا .

وفى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور نقض الأصبهبذ عظيم طبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان ببلاده منهم ، ولم يرع الأمان الذى لهم عليه ، فسير المنصور اليه ثلاثة من رجاله ، فما زالوا به حتى دخلوا عليه الحصن وقتلوا من فيه وسبوا ، ولم يجد الأصبهبذ مخلصا له الا بالانتحار ، فشرب سما ومات لساعته .

ومن الذين نقضوا العهد فى عهد هارون الرشيد ، نقفور ملك الروم ، وهو الذى تولى الحكم بعد الملكة ارينى التى كانت تؤدى للعرب كل عام مالا على صلح بينها وبينهم ، فلما جاء بعدها نقفور توقف عن الدفع ، وكتب الى هارون يقول له :

(. . . أما بعد ! فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها ، ولكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، والا فالسيف بيننا وبينك) .
وقد رد عليه هارون بأن الجواب ماتراه لا ماتسمعه . . وسار اليه بجيش خرب فى بلاده وأحرق ، وفتح وغنم ، فسأله

نقفور المصالحة على مال يدفعه له كل عام ، ولكن الرشيد ما كاد يرجع الى مدينة « الرقة » حتى بلغه أن نقفور قد نقض عهد الصلح ... فعاد اليه ولقنه درسا قاسيا فى احترام العهود .

ولعل أشنع نقض للعهود فى تاريخ المعاهدات الاسلامية ما حدث من الفرنجة بعد تسليم غرناطة بشروطه السبعة والستين سنة ٨٩٧ هـ ، فقد أخذوا عقب التسليم مباشرة ينقضون تلك الشروط شيئا فشيئا ، وبالغوا فى ذلك حتى حملوا المسلمين على التنصر ، واضطر كثير منهم الى ذلك نجاة من القتل ، وامتنع قوم من التنصر استمساكا بدينهم أو يفعل الله ما يريد ، واجتمعوا فى بعض القرى متحصنين بها ، فجمع العدو لهم الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم ، ومن نجا منهم من القتل خرجوا يعبرون البحر الى « فاس » بعيالهم وما خف من أموالهم ، الى أن تم اجلاؤهم عن فردوسهم الضائع سنة ١٠١٠ هـ . ولله عاقبة الأمور ، فهو وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ...

ونقض العقود والعهود يكون دائما بالأفعال المناقضة لما وقع عليه الشرط ، وحصل عليه الاتفاق ، وتم عليه التصديق ، فهو لا يحتاج الى ابلاغ أو انذار . أما فسخ العهود فيكون بالكتابة أو على ألسنة الرسل .

واذا كان الفسخ من جانب واحد من الجانبين الموقعين على العهد فهو « فسخ » ، واذا كان من الجانبين جميعا فهو

« مفاسخة » . والفسخ والمفاسخة من حقوق العاقد اذا لم يرد أن يمضى فى العهد الى أجله ، أو يبلغ به نهاية مدته . أما النقض فهو نكث بالعهد وغدر بالمعهود اليه . وهو عمل لا يجوز فى شريعة ، ولا يحل فى دين ، ولا يصح فى مذهب . ولهذا كان نقض العهود والمهادنات دائما يقابل بتجديد القتال من الطرف الذى وقع الغدر عليه وأثر النقض فيه .

ويلاحظ ملحظ دقيق بين النقض والفسخ فى العهود ، فقد يلجأ أحد الطرفين المتعاقدين الى « الفسخ » حين يتبين فى سلوك الطرف الآخر غدرا أو احتمال غدر ، فهو سبيل يركبها المضطر الى ملافاة غدر يتوقعه ، أو حيف يترقبه . أما « نقض » العقد فهو غدر فى ابتدائه وانتهائه ، فلا سبيل فيه الى اعتذار ، أو قبول أعذار .

تصويب : صحة السطر الرابع ص ١٩ هكذا :

ولما نقضت بنو قريظة من اليهود عهدها الذى أمضاه

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقـــدمة	٣
لمحـــة عامة	٥
البواعث على قبول المهادنات والمعاهدات	٢١
المفاوضات والرســل للصلح	٣٢
الشروط فى المعـــاهدات والمهادنات	٥٠
الاشهاد على المهادنات والصـــلح	٦٧
مجالس توقيع المعاهدات والمهادنات	٧٤
أطراف المعاهدات والمهادنات	٨١
تحرير المهادنات والعهود	٩٢
احترام المسلمين للعهود والمهادنات السابقة	١٠٨
نقض عهود الصلح وفسخها	١١٨

مؤسسة أخبار اليوم

توزيع الأخبار

١٩٦٥ / ٢١

٥٧٧

القاهرة فى ... فبراير ... سنة ١٩٦٥

السيد الاستاذ رئيس تحريـــــر
مجلة الاذاعة والتليفزيون الغــراء

تحية طيبة وبعد

يسرنا أن نهنئكم بالعيد الثلاثين لصدور مجلة الاذاعة والتليفزيـــون راجين لها دوام التقدم والازدهار خصوصا وقد وصل توزيعها فى نسختها الجديدة الى رقم ٧٥٠٠٠ نسخة داخل الجمهورية العربية المتحدة .

واذا أضيف الى هذا الرقم، الموزع بمعرفتكم رأسا فى الجهـــات الاخرى وهــــى :

١ ـ توزيع الخارج والبلاد العربيـــة .
٢ ـ الاشــتراكات .
٣ ـ الهدايا والمجانيات والمبادلات .

لاتضح لنا أن مجلة الاذاعة قد حققت أرقاما تزيد من المائة ألف نسخـة وهى أرقاما قياسيـــة .

نرجو اعداد العدة لتحضير مايناسب هذه الكميات من الورق والخامـــات حتى لا نفاجأ بأية عوائق قد تعطل التوزيـــع .

والى توفيق دائـــم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحتـــرام ...

توزيع الاخبـــار

٧٤,٨٨٥	توزيع داخل ج.ع.م
١٣,٣٧٣	توزيع خارج ج.ع.م
١١,٢١١	الاشتراكات
٢,٨٦٤	الهدايا والمبادلات
١٠٢,٣٣٣	المجموع

- أكثر من ١/٢ مليون يقراون مجلة الاذاعة والتليفزيون كل اسبوع
- اعلى رقم وصل اليه توزيع مجلة فى الشرق الاوسط .



هذا التفوق الساحق دليل على وعى القارىء العربى .

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى